الدكتور محمود توفيق محمد سعد

نظرية التناسب القرآني

عند برهان الدين البقاعي (٨٨٥ هـ.)

منهجاً وتطبيقاً

الطبعـــة الأولى

١٠٤٦ هـ - ١٩٨٦ م



٢ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين • الرحمـــن الرحيـــم • مالك يوم الدين • والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والمسلمين الذين قال لهم مرشدا وهاديا : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » فكان ذلك الدافع الفتى لخاصة أمته الى أن تهب وجودها كله فى هذه الحياة لتعلم القرآن الكريم ، وتدبره ، وتطبيقه ، وتعليمه •

من هؤلاء الخاصة رجل اتخذ الى تدبر البيان القرآنى المعجز منهجا بديعا وطريفا وقويما فى الوقت ذاته ، حرص كثيرا على الالتزام به من بعد غرسه وتقويمه وتزكيتة : تطهيرا وانماء • انه الامام «برهان الدين ابراهيم بن عمر البقاعى » (ت ٨٨٥ هـ) الذى قدم للمكتبة الاسلامية الكثير الطيب ، غير أن جل ما قدمه فى فنون العلوم الاســلامية ما يزال مطمورا تحت كثبان النسيان أو الاهمال ، والأوراق القادمة من هـــذه الدراسة تحاول جاهدة أن تزيح بعضا مما تراكم على نتاج هذا الامام فى رياض التدبر الجمالى لبيان القرآن الكريم ، وهـــذه المحاولة كانت أمنية تضطرم فى الفؤاد قديما ، وقد شاء الله تعالى أن تستحيل بحمده تعالى الى حقيقة تسعى الى أن يكون لها مكان كريم فى عالم العالم والعلماء •

★ ★ ★

موضـــوع الدراسة وهدفها :

ينحصر القول فى هذه الدراسة فى رؤية « البقـــاعى » الاعجـــاز البيانى للقرآن الكريم ، والقول فى هذه الرؤية يمكن تناوله من جوانب عدة ، لا يستطيع باحث فرد لن ينهض لها وبها فى دراسة واحدة ، وان كان من كان ، فان هو سعى الى ذلك خسر وجوده كباحث ، فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى •

لذا تحدد هذه الدراسة الجانب الذى تتناول منه رؤية « البقاعى » وجهده فى تدبر الاعجاز البيانى للقرآن الكريم ، ذلك الجانب هو الكشف عن منهج « البقاعى » فى تدبر البيان وتذوقه وتخطيطه لتحقيق هذا المنهج ثم ترجمته لمعطاءات ذلك كله ، كما تستقر فى عقله وقلبه أو تتقدح أو تلتمع فيهما •

ولا ريب فى أن قراءة موروث الأجداد — ولاسيما فى محيط تدبر القرآن الكريم وفهم السنة الشريفة — بحاجة جد شديدة الى كشف منهج أولئك الأئمة فى بناء تراثهم ، وهذا الكشف هو من أدق وأصعب مايعانيه الباحثون فى التراث الاسلامى ، لأنه فى حقيقته محاولة للتوغل فى أدغال فكر أولئك الرادة الأئمة ، كيما نعرف كيف تتنشأ الفكرة فى ألبابهم ، ثم تتخلق ، ثم تكون بين أيدينا تراثا هو اليوم يشكل عقولنا وشخصيتنا الفكرية والثقافية •

هذا الاتجاه الذى نحدو اليه عيسنا علها نبلغ الحمى أو تقترب هو الذى يعيد الى هذه الأمة دورها الرائد فى مجال الفكر والثقافة والمعرفة العميقة والواسعة فى الوقت ذاته •

★ ★ ★

منهج الدراسة : الأساس والبنية :

أولا : الأســـاس

الذاتية الرشيدة من أسس الموضوعية فى كشف وتقويم الابداعات الفنية والفكرية على اختــلاف انواعهــا وهــو ما يعــرف بالنســبية

الموضوعية (١) ، ذلك أن الذى لا يمكن أن يدفعه دافع هو أن « للقلب تعليله الذى لا يعرف العمل عنه شيئا »(٢)

هذه الذاتية الرشيدة تستمد قوامها الفنى الزكى من وفرة وتنوع الزاد الثقافى للناقد ، ومن فقهه وادراكه النافذ فى أعماق الدلالات ومن رهافة حسه الأدبى واستشفافه الذوقى ، وادراكه لملامح الجمال الدقيقه ثم من وثاقة الاعتلاق بالمبدع ، بحيث يتأتى له استكناه الحقائق والدقائق والرقائق من ثنايا بيانه . ذلك أمر قد أشار اليه الفاقهون (٣) .

ان يكن ذلك فى نقد الأعمال الابداعية فى دنيا الكلمة الانسان ، فانه اسمى مكانة ، واجدى عطاء ، وأكرم نوالا فى آفاق الكلمة الالهية المعجزة من حيث هى ، ومن حيث ما يطوف حولها من دراسات ، ولعل فاعلية الاعتلاق الوثيق بين العبد وربه أعظم أثرا وظهورا فى أى نتاج علمى يجاهد فى أن يقدم للأمة خيرا من فاعلية العلاقة بين الناقد والمبدع فى دنيا الكلمة الانسان .

انه على قدر اتصال الباحث الرشيد بربه عز وعلا يكون الفيض الأقدس والعطاء الأنفس ، ويكون الاقتدار على الاستقبال والتأثر والترجمة والايضاح ، وذلك أمر قد أبرز أصوله الأقدمون الفاقهون(٤)

---

(١) ينظر : النقد الفنى ـ جيروم ستولنيتز ، ترجمة فؤاد زكريا ص ٦٣٣ .

(٢) ينظر كتاب : ادجار ألن بو للفنسنت بوارنيللى ص ٤٧ ،والوساطة للجرجانى ص ٤١٢ ، وقواعد النقد الأدبى لكرومبى ص ٦ ، والأسس الجمالية لعز الدين اسماعيل ص ٦٧ ، ومنهج البحث فى الأدب واللغة للانسون ص ٤٠٢ (ضمن النقد المنهجى لمندور) .

(٣) ينظر فى هذا : النقد الفنى لستولنيتز /٦٩٨ ، والتذوق الأدبى كيف يكون لآرنولد بنيت /٢٦ . وقضايا النقد الأدبى لزكى عشماوى / ٤٢٠ ـ ٤٢٣ . وفن الشعر لاحسان عباس / ٢٠٧ .

(٤) ينظر فى هذا : فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٢١ ـ ٣٢٤ تحقيق

فأساس الذاتية ـ عندنا ـ فى الدراسة الجمالية لبيان القرآن الكريم انما يكون من معطيات وفيوضات الاعتلاق الوثيق بالسماء فيزداد العبد استغراقا فى مقام العبودية الخالصة لربه ـ عز وعلا • ثم من معطيات أمور وهبية وكسبية هى أساس كل دراسة جمالية للكلمة الانسان : شعرا أو نثرا ، غير أن فاعلية الاعتلاق بالسماء فى دراسة الكلمة الالهية المعجزة تفوق فاعلية كل الادوات والوسائل الوهبية والكسبية •

من هنا كان أساس المنهج الذى نسعى الى الالتزام به فى دراستنا هذه يتكون من تفاعل عناصر ثلاثة :

ـ محصول ثقافى بعيد الغور ، فسيح المدى ، متكاثر الروافد فى صحبة استبصار عقلى واعٍ •

ـ استشفاف ذوقى مرهف ، مدرك لملامح الجمال فى الأشياء عامة وفى الكلمة الماتعة خاصة •

ـ سعى حثيث الى التخلق بأخلاق العبودية الخالصة لله تعالى وحده والتبرؤ من ملاحظة سطوات الجلال أو فيوضات الجمال لذاتهما، بل لما قاما به آزلا وسرمدا •

تلك هى مكونات أساس هذا المنهج ، ولا ريب فى أنها تنزع الى المثالية المتأبية على التحقق ان عاجلا أو آجلا لمثلى • بيد أن ذلك مانصبوا اليه ، ونسعى حثيثا الى أن نحوز منه القدر الطيب ثقة بأنه « ما أقبل

=

حسين القوتلى والمفردات للراغب الاصفهانى /٥ (ط سنة ١٣٨١ الحلبى) والفوائد لابن القيم ص ٣١ (ط سنة ١٤٠٠ هـ) والموافقات للشاطبى ٢٧٢/٣ / تحقيق محيى الدين والبرهان فى علوم القرآن للزركشى ١٥٤/٢ تحقيق أبى الفضل ـ بيروت •

عبد على الله جل وعز الا أقبل الله عليه وأسرع اليه الاجابة ، فكذلك اذا أقبل على الله تعـالى ، وذكره بطلب الفهم ، أسرع اليه بالافهـام له ، وكذلك ضمن للمقبلين اليه بعقولهم لفهم كلامه عنه ، فقال عز وجل :

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » [ق : ٣٧](٥)

★ ★ ★

البنيـة :

ما مضى كان تبيانا لأساس المنهج الذى اتخذناه أما بنيته ،فتمثل فى ثلاثة أمور :

العرض والتحليل والتقويم ..

(أ) أما العرض ، فهو وان يكن وسيلة فى الدراسات النقدية لنص علمى أو أدبى الا أنه فى دراسة نتاج « البقاعى » خاصة يكتسب قيمة أساسية ، ذلك أن عطاءه فى تدبره البيان القرآنى ما يزال مطمورا فى خزائن المخطوطات ، قليل من أطلع على شىء منه ، وأقل منه من فتش فيه بأى منهج ، بل ان دراستى هذه هى أول دراسة تتناول جانب التدبر الجمالى لبيان القرآن الكريم لدى « البقاعى » والذين سبق لهم أن تناولوا شيئا من تفسيره ثم يقم أحد منهم بتناول هذا الجانب بالتقويم ولا بالتحليل ، أقول ذلك وأنا على وعى كامل بكل حرف أرقمه هنا حتى لا يظن أنى متغافل عما حام حول الشيخ من دراسات .

من هنا فانى أسعى الى التقاط بعض ما دسه الشيخ عن عمـد فى

---

(٥) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣١٢ (تحقيق حسين القوتلى) ط / ٢ سنة ١٣٩٨ ـ دار الكندى / بيروت .

ثنايا تفسيره المخطوط ذى المجلدات المتعددة ، فحق على هذه الدراسة أن تجعل انفاذ صوت الشيخ الى بعض عقولوقلوب المهمومين بالدراسات القرآنية ولاسيما البيانية جزءا من بنية منهجها عسى أن يكـون لذلك أثره الطيب .

★ ★ ★

(ب) أما التحليل ، « فالبقاعى » كتب تفسـيره للقـرآن الكريم بأسلوب عمد فيه الى الايجاز البالغ ، والاكتناز الموغل ، مما جعل كثيرا من المشتغلين بالبحث يتوهمون أنه خواء من الجنى ، ولاسيما ما يتعلق بالبيان ، وذلك يفرض على ابراز ما فى تفسيره للقرآن الكريم من عطاء بيانى على وجه أخص .

ولعلك تدرك قدر العناء فى تحقيق ذلك حين تقرأ تصريح البقاعى بأنه عمد فى تفسيره الى الايجاز،ولن يستطيع فهمه حق فهمه الا من تلقاه عليه كما يقول .(٦)

★ ★ ★

(جـ) أما التقويم فهو يعتمد على أساسين : المعالجة والتقـدير

ــ المعالجة تبدو فى محاولتى تقويم بعض ما أبصرته من عـوج فى التدبر أو ترجمة عطاء التدبر ، أو من نقص فى حواشيه متى أعـان الله ــ تعالى ــ على ذلك .

ــ التقدير يبدو فى ابراز قيمة أفكاره : (نظرا وتطبيقا) وما له فى هذا وما عليه فى عدالة المسلم .

---

(٦) ينظر الأقوال القويمة للبقاعى ص ١٨٣ (مخطوط رقم ١٢٦٩ تفسير ــ دار الكتب المصرية) .

من هنا استطيع القول ان منهج هذه الدراسة هو منهج وصفى ناقد : نقدا تفسيريا وتقويميا .

ولست أزعم أنى قد حققت هذا المنهج تحقيقا كاملا ، ولكنى سعيت الى ذلك ما استطعت ، فان يكن فضل فمنه جل جلاله وحده . واذا ما كان غيره فانى له أهل .

* * *

خطة الدراسة

قسمت هذه الدراسة على مباحث أربعة مسبوقة بمقدمة وتمهيد ومردفة بخاتمة ثم صحبها لحق .

[المقدمة] هى التى بين يديك تعرض موضوع الدراسة ،وتحدد هدفها ، وتجلو منهجها وخطتها والسبيل الذى سلكت والأبواب التى اجتازت .

[التمهيد] درست فيه موقف البقاعى من أمرين :

الاول : علاقة اللفظ بالمعنى وما قدمه فى ذلك .

الآخر : مفهوم انتناسب القرآنى ، والأسس التى يرتكز عليها ، والميدان الدى يتحقق فيه أثره .

***

(١) [المبحث الأول] : جوانب تناسب عناصر الكلمة مع السياق والقصد ، وقد تناول خمسة جوانب جعلت كل جانب فصلا :

الاول : تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث مادتها .

الثانى تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث هيئتها .

الثالث : تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث اداؤها .

الرابع : تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث رسمها •
الخامس : تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث الخصائص الصـــوتية •

* * *

(٢) [المبحث الثانى] : تناسب عناصر الآيةوالنجم للسياقوالقصد •

درست فى هذا المبحث بعضا من الأســاليب القرآنية ولم تشــمل كل الأساليب التى تناولها الدرس البلاغى فيما عرف بعلم المعــانى والبيان والبديع وانما انتقيت بعضا منها لتكون نموذجا لفهــم وتدبر البقاعى لأسانيب القرآن ، لانه ليس من اليســير على بحث فــرد أن يستقصى كل الاساليب فيما يختص بالآية والنجم ، ولاسيما فى مثــل هذا البحث الذى يهتم أيضا بجوانب أخرى كان من حق (البقاعى) عليه أن يقدمها للبحث البلاغى ، ليلفت انتباهه واهتمامه بها وهى التى تأتى فى المبحث الثالث والرابع •

اما الاساليب التى قدمتها هنا فقد بدأت بالالتفات اشــارة الى الالتفات من دراسة الكلمة فى ضوء السياق والقصد الى دراسة الجملة والآية والنجم فى ذلك الضوء أيضا ، وحاولت فيه ابراز اهتمام البقاعى بالاشارة الى سرائر الأساليب وعطاءاتها اكثر من اهتمامه بالتقســيم والنقاش والجدل ، وكذا ابراز ما يمكن للدرس البلاغى أن يســتفيده من فهم البقاعى وتدبره فى هذا ، ثم تلوته بالقسم وخصصت القســـم الالهى الذى يأتى فى أسلوب (لا أقسم) مع تبيان العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، وكان تقديم القسم على ما بعده تجاوبا مع موقعه فى الكلام فله الصــدارة ، وهو من أقوى مؤكدات الكلام ، فكان من حقه التقديم فى دراسته هنا ، ثم جاءت دراســة القصر من حيث أنه تأكيد على تأكيد ، غير أنه دون القسم درجة فى التأكيد ظهورا وجلاء •

ولما كان من طرق القصر تقديم بعض عناصر القــول على بعض ، وكان عطاء التقديم غير مقصور على الدلالة على القصر كان من الحسن ارداف القصر بالتقديم والتأخير والترتيب ، ولما كنت أفرق بين التقديم والتأخــير من جهــة والترتيب بين العنــاصر من جهــة أخرى كمــا سيأتى ، وكانت بعض صور الترتيب قد تكون مصحوبة بحــرف عطف وكان من حروفه العطف ما يفيد ترتيبا ، وبعضها لا يفيد كالواو عمدت الى اردافه بدراسة عن العطف بالواو وتركه (الفصل والوصل) ،ولما كان أبرز عطاء الواو الدلالة على الجمع بين العناصر وتغايرها عمدت الى دراسة اسلوب يجمع بين عناصر متغايرة وينسجها على منهج سـماه بعضهم الاحتباك فدرسته عند البقاعى مبينا اهتمامه بهذا الاسلوب حتى انه ليبدو لكل قارىء لتفسيره اهتمامه به وبتوضيحه على الرغم من عدم اهتمام المفسرين والبلاغيين به بل ان بعضهم أشار اليه كمحسن بديعى بمفهوم المتأخرين للمحسن البديعى •

ولما كان الاحتباك عنده قائما على النسج المنسق للعناصر أحببت أن أردفه بأسلوب لا يظهر فيه التنسيق للعين والعقل سريعا ، وهو أسلوب اللف والنشر المشوش خاصة ، لاهتمام البقاعى به على الرغم من حكم بعض البلاغيين عليه بأنه دون المرتب فاحببت ابراز موقف البقاعى منه وفهمه وتدبره ومدى صـحة ماذهب اليه بعض البـلاغيين من الحكم على هذا الاسلوب •

ثم درست بعد هذا أسلوبين من أساليب البيان همـا التشـبيه والاستعارة •• باعتبارهما أبرز أساليب البيان وأثراهما عطاء ، وتركت دراسة المجاز المرسل والمجاز العقلى والكناية بعد أن اعددتهما مخـافة اثقال البحث وملابساته •

ثم كان ختم هذا المبحث بدراسة عن الفاصلة وموقف البقـــاعى من السجع ، ولا تخفى عليك علاقة هذا الاسلوب بموطنه فى المبحثوكأنى

أشير به الى انتهاء القول فى هذا المبحث الثانى ، وبهذا تجلى لك اعتلاق عناصر هذا المبحث ببعضها •

* * *

(٣) [المبحث الثالث] : (تناسب عناصر السورة القرآنية)

فى هذا المبحث عمدت الى دراسة الاعتلاق الوثيق بين كل عناصر السورة مجتمعة وتبيان المبدأ الموحد الجامع بينهما فى تآخ وتعانق وقد قسمته على فصلين :

الاول : درست فيه الافكار النظرية للبقاعى فى هذه القضية وحالتها وقومتها وبينت أين هى من الدرس البلاغى والنقدى •

الآخر : درست فيه تطبيق البقاعى لهذه الافكار ، ولما كان من الجلى استحالة قيام بحث فرد بالتعليق على تطبيقه على كل سور القرآن الكريم كان من اللازم اختيار سورة من سور القرآن الكريم ، وقد كانت سورة النحل ، أما لم كانت سورة النحل بالذات ؟ فالحق الصراح ان ذلك الاختيار ليس لى فيه شىء ، فقد أجريت قرعة ، وهى من سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فشاء الله تعالى أن تكون سورة النحل فطلبت العون والتوفيق ، ولعل فى هذا الاختيار فألا حسنا ان شاء الله تعالى •

* * *

(٤) [المبحث الرابع] : (تناسب ترتيب سور القرآن الكريم)

يعمد هذا المبحث الى ابراز اهتمام البقاعى بتدبر وتبيان تناسب القرآن الكريم من حيث ترتيب سوره على النحو الذى بين أيدينا ،

وقد قضت طبيعة هذا المبحث تقسيمه على ثلاثة فصول :

(أ) الفصل الأول : (تناسب براعة الاستهلال مع المضمون والمقصود بين بعض السور) تناولت فيه تناسب بعض السور فى

براعة الاستهلال فيها ، وعلاقة اســتهلال كل بمضــمونها ، وقد مثلت لذلك بنموذجين :

الاول : سورتا النساء والحج •

والآخر : سورة الفاتحة والانعام والكهف وسبأ وفاطر •

حاولت ابراز تطبيق البقاعى للافكار ومطابقتها على عناصر السور المدروسة وقيمة صنيعه هــذا •

(ب) الفصل الثانى : (تناسب ترتيب السور المتتالية)

تناولت فيه تدبر وتبيان البقاعى لتناسب ترتيب السور على وفق ترتيبها فى صدورنا ومصاحفنا واخترت تسع ســـور من أول القــرآن للمتابعة (الفاتحة ــ التوبة) وهو اختيار عن عمد تبدو اسبابه فى الفصل التالى (الثالث) والبقاعى هنا اعتمد فى تدبره لتناسب ترتيب السور على التناسب فى المقصود والروح المهيمن دون اغفال للتناسب بين استهلال السورة لخاتمة ما فيها بل وخاتمتها تبيانا لفكرة انتهى اليها وهى فكرة الدائرة المفرغة بحيث لا يكون للسورة أول ولا آخر •

(جـ) الفصل الثالث : (رد مقطع القرآن على مطلعه)

تناولت فى هذا الفصل دراسة رد عجز القرآن على صدره كمـــا يسميه البلاغيون والبقاعى احيانا ، وهو قدم لنا ثلاثة مســتويات من تبيان ما انتهى اليه بعد طول تدبر :

(أ) المستوى الأول : رد تسع سور من آخر القرآن على تســع سور من أوله على وفق ترتيب القرآن فى صدورنا ومصاحفنا ، ولذا كان اختيارى فى الفصل السابق لدراسة التسع السور الأولى ، وهو بهذا يحاول تفسير حديث الحال المرتحل كما سيأتى تبيانه •

(ب) المستوى الثانى : يرد سورتى الفلق والناس على سـورة البقرة فقط بحيث تكون الفاتحة محيطة بالقرآن كله باعتبارها أم الكتاب •

(جـ) المستوى الثالث : يرد سورة الفيل الى آخر سورة الاخلاص (قل هو الله أحد) على آيات الفاتحة وبعض أيات من أول البقرة حيث يقابل الايه (٢١) « يا أيها الناس اعبدوا ربكم •••• » بسورة الاخلاص ثم يجعل المعوذتين تحصينا لمن ارتقى من فاتحه الاخلاص المتمثلة فى الآية (٢١) من البقرة الى غايتها المتمثلة فى سورة (الصمد) وقد وضحت رؤيته لهذا كله وناقشته وقومته ، قدر ما اعان الحق عز وعلا •

★ ★ ★

الخـاتمة : خلصت ولخصت فيها ما جاءت به هذه الدراسة ومـا كانت تحب ان تصنعه ، ولم تفعل ، واسباب ذلك ، وما تود ان يتحقق فى محيط الدرس البيانى (الاجمالى) للقرآن الكريم وبذلك تمت مباحث هذه الدراسة وخاتمتها •

(اللحق) جعلت هذا اللحق لتحقيق نص تفسير البقاعى سورة النحل التى وقع عليها الاختيار لدراستها فى المبحث الثالث وقد عالجت تحقيقها على ضوء اصول تحقيق النصوص العلمية المقررة مع القـاء بعض من الضوء على ملامح حياة البقاعى ونتاجه فى شتى فنون المعرفة، واختصاص تفسيره « نظم الدرر من تناسب الآى والسور » بحديث مبسوط يتناسب مع قدره •

★ ★ ★

مصـادر الدراسة : ـ

لا ريب فى أن المصدر العلمى الرئيس لهذه الدراسة هو تفسـير البقاعى المسمى : « نظم الدرر من تناسب الآى والسور » ولمـا كان

هذا التفسير فى اثناء اعداد هذه الدراسة والى أن فرغت منها ما يزال مخطوطا ، ولم تسعد الديار الاسلامية الا بطبع أجزاء منه فى انهند الى يومنا هذا ، وما تزال الديار المصرية محرومة من هذه الأجزاء .

لذا اتخذت نسخة مخطوطة مودعة فى خزائن المخطـوطات بدار الكتب المصرية ، [رقمها : ٢١٣ تفسير] مصدرا وقد حرصت على مقابلة النصوص منها حين أدرك اضطراما بنســخ أخرى فى معهد المخطوطات العربية ، وفى خزانتى جزء من النسخة رقم (٢١٣) دار الكتب المصرية وجزآن من النسخة رقم ١٤٢ تفسير عن المكتبة الظـاهرية بدمشــق ، والمودعان بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

ثم اتخذت كتاب دلائل الاعجاز وكتــاب اسرار البـلاغة للامام عبد انقاهر ، والمطول للسعد ، والكشاف للزمخشرى مصادر لا تفارقنى ورودا وصدورا ، سواء نقلت منها نصــا أم لم أنقل ، بل كنت دائم النظر والتأمل فيها على انى قد أودعت فى آخر البحث ولحقه ثبتا مفصلا بأهم مصادرى ومراجعى ، فانظره ان أحببت .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا » وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله والمسلمين ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

التمهيـــــد

ـ الفصـــل الأول : ـ

العلاقة بين اللفظ والمعنى

ـ الفصل الثانى : ـ

التناسب القرآنى

مفهومه ـ دعائمه ـ ميدانه

الفصل الأول

« العلاقة بين اللفظ والمعنى »

حظي تبيان هذه العلاقة باهتمامات كثير من المفكرين على اختلاف اتجاهاتهم ، ولن ينتهي القول فيها ما بقيت عقول وألسنة ، ولم ينل ما قاله ناقد مسلم فيها من الدرس والتقدير ما ناله قول الامام عبدالقاهر فقد عمدت دراسات عدة الى تحليل وتقويم جهوده ، فوضع فى بعضها على ذروة ما قيل فيها قديما وحديثا (١) ٠

بل ذهب الدكتور على جواد طاهر الى أنه قال « حقا وسجل سبقا نادرا ، ولكن الذين جاءوا بعده لم يسيروا فى خطه ، وظلوا حيث هم من الحديث عن اللفظة مقطوعة عما حولها ، وساروا ، كما بدأوا فى الفصل بين اللفظ والمعنى ٠٠٠ فى المشرق والمغرب » (٢) ٠

لا ريب فى أن ذلك حكم عميم ، ظلم جهودا جاءت من بعد عبد القاهر أقل ما يقال فيها ، من بعد درس وتحليل : أنها أجادت فهمه وتطبيقه ، بل ان استاذنا أبا موسى أعلى جهد الزمخشرى على جهده (٣) ٠

---

(١) ينظر : قضايا النقد الأدبى لزكى العشماوى / ٣١٩ ، ٣٢٢ ، والميزان الجديد لمندور / ١٤٣ ، ١٤٨ ، واللغة العربية مبناها ومعناها لتمام حسان / ١٨ ـ ١٩ ومقدمة فى النقد الأدبى لجواد الطاهر / ٢٣٦ ، هامش رقم (٣٦) والأسس الجمالية لعز الدين اسماعيل /٣٣٦ ، مجلة فصول ص ٣٣ /ع ـ ٣ / م ـ ١ ٠

(٢) مقدمة فى النقد الأدبى ص ٣٢٠ ٠

(٣) البلاغة القرآنية ص ١١ ٠

وليست بالذى يذهب الآن الى أن البقاعى قد أجاد الفهم والتطبيق وتجاوز الى الانماء والتعسيق ، بل أذهب الى أن له فى هذا رأيا جديرا بالدراسة والنقد •

يقول الشيخ البقاعى : « ألفاظ المفردات ومعـــانيها ، وكل جملة على حيالها بمنزلة الجسد ، وارتباط الجمل بعضـــها ببعض حتى ان كل جملة تكون آخـــذة بحجـــزة ما أمامهـــا متصـــــلة بها ، يدرك ذلك من يذوق ويفهم ، ويسرى ذهنه فى ميادين التراكيب ويعلم » (٤) •

ظاهر المعنى أن الألفاظ بأصواتها ومعانيها الافرادية والتركيبية فى اطار الجملة الواحدة تمثل جسد الأسلوب وأن ما يتولد من اعتلاق كل جملة بما قبلها وما بعدها وتفاعلها معها هو روح الاسلوب المهيمن على كل عنصر فيه ، وان دق •

كأنه يقول ان علاقة الألفـــاظ (الجانب الحسى من العبـــارة) بمعانيها الافرادية والتركيبية : الوضـــعية والشـــعورية ، وكذا علاقة المعنى الافرادى بالتركيبى بعنصريه فى الجملة الواحدة لا تتعدى علاقة عناصر الجسد المادية ، فكل عنصر فيه له قيمته ومكانته وفاعليته لكنها منفردة أو مجتمعة على أكمل اجتماع لا يمثل حياة هذا الجسد ، فحياته فى روحه ، وفى الوقت نفســـه لا وجود لتلك الروح فى غير الجسد فهو مستقرها الذى تسرى فيه •

قصر «البقاعى» الروح على اعتلاق الجمل : بسيطة ومركبة ، من دون اعتلاق الألفـــاظ فى الجملة هو ــ فيما اذهب ــ فهم جيد لنظرية « عبد القاهر » • ان لم يكن انماء لها وتزكية •

---

(٤) نظم الدرر للبقـــاعى جـ ٦ ق ٤١٣ (مخطوط رقم ٢١٣ تفســـير دار الكتب المصرية) •

وتسمية «ابنائي» ما يؤخذ من الاعتلاف بين الجمل روحا يعني انه المهيمن على كل شيء في الكلام ، وانه يسري فيه فيمنحه القدرة على أن يتفاعل مع غيره في اطار كلي ، وذلك هو المبدأ الموحد المتحكم في الكائن الحي ، والملون والمشكل كل عناصره ، وهو ما أعجن النقاد في الأعمال الابداعية (٥) وسيأتي مزيد بيان لذلك .

فلسفة « البقاعي » هذه يمكن ترجمتها الى أنه لا يتأتى لأحد ان يفصل أي عنصر من عناصر التعبير عن بقية العناصر ولا سيما في البيان القرآني ، لأن المضمون فيه بما يثيره من دقائق الفكر ورقائق الشعور انما هو مضمون لغوي ، ومن ثم كان العلماء القائلون بأن القرآن الكريم الذي نرتله بألفاظه ومعانيه غير حادث ولا مخلوق على وعي بهذه القضية : قضية التفاعل بين ألفاظه ومعانيه (شكله ومضمونه) مما أضفى على حروف ألفاظه المرتل بها قداسة يحرم لها مجرد لمس ماترقم فيه على غير المتطهرين بينما هي خارجه قد تكون زاد الشيطان وعبيده الشعراء ، فتهتك بها أعراض وتسفك دماء وتثار فتن .

أضف لذلك حرمة أداء القرآن الكريم بغير ما ثبت عن رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — أو ليس ذاك آية على أن البناء اللغوي للقرآن الكريم — والأداء جزء منه — اذا ما جدث فيه أدنى تغيير أدى ذلك الى تغيير في المضمون ، وهو ما بحرم الاقدام عليه ؟

أو ليس ذلك برهانا على أن اللغة في القرآن الكريم ليست وسيلة الى غاية فحسب ، بل هي في الوقت ذاته غاية لها قداستها ؟ ومن ثم كان التالي لحروفه مفاضا عليه من كوثر الحسنات وإن لم يفهم من معناه شيئا قط .

---

(٥) ينظر في هذا : دراسات في الشعر والمسرح لمصطفى بدوي ص ٦ — ٧ الطبعة الثانية ١٩٧٩ م — الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فى فهمى أن « البقاعى » استقى موقفه من اطلاق القرآن الكريم كلمة «روح» على مستويين :

الأول : السر الباعث فى انجسد حركة « حيـاة » ، وهو الذى سأل عنه المعـاندون « ويسـألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ••• » الاسراء : ٨٥ •

الآخر : الهـدى الالهى الباعث فى المسـتوى الأول حيـاة أطهر وأرقى ، وهو ما يجعل صاحبه جديرا بوصف الحيـاة : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » • النحل : ٢ •

« البقاعى » نظر فى عالم البيان فوجد فيه ألفاظا وعلاقات بينها وعلاقات بين الجمل ، وما علاها ، ورأى أن الجـديرة باسـم الروح ــ اعلاء ومبالغة ــ هى ما بين الجمل من علائق •

أما التى بين الألفاظ المفـردة فى اطار الجملة الواحدة « الروح » لها شأن ، الا أنه دون الأول بكثير ؛ فقصر مصطلح «الروح» عـلى ما بين الجمل وما علاها اعلاء ومبالغة •

؟

البقاعى من حيث تنظير علاقة اللفظ والمعنى بعلاقة الجسد والروح من حيث هو تنظير لم يكن المبتدع فقد كان ذلك قبله بكثير •

فقد صرح « اخوان الصفا » بأن « المعانى فى الكلام كالأرواح ، وألفاظها أجساد لها ، فلا سبيل الى قيام الأرواح بالأجساد » (٦) •

وكذلك يقول « ابن رشيق القيروانى » : « اللفظ جسم وروحـه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسد ••• » (٧) •

ونجد الدكتور « أحمد بدوى » يعتبر هذا التشـبيه فى كلام

---

(٦) رسائل اخوان الصفا ١٠٩/٣ (ط /١٩٥٧ م) •

(٧) العمدة ١٢٤/١ (ط /٤/سنة ١٩٧٢ م) •

ابن رشيق مصورا الى مدى بعيد ما بين ركنى الأدب من صلة لا تنفصم (٨) .

واعتبره الدكتور « احسان عباس » : نصا واضحا على ضرورة التلاحم بين اللفظ والمعنى (٩) .

بل ان الدكتور « محمد أحمد العزب » ذهب الى أن «ابن رشيق» بهذا قد أنهى الانفصال بين اللفظ والمعنى فى الفكر النقدى العربى القديم ، فأخذت القضية مسارها الصحيح (١٠) .

جلى أنه ليس دقيقا كل ما ذهب اليه الدكتور « العزب » فابن رشيق ليس الذى أنهى الانفصال ، ووضع أساس الارتباط ، وراد اتجاها جديدا ، على حد تعبيره ، فالعتابى المتوفى سنة (٢٢٠ هـ) قد قال قبله بقرنين من الزمان :

« الألفاظ أجساد ، والمعانى أرواح ، وانما تراها بعيون القلوب فاذا قدمت منها مؤخرا أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى » (١١) .

المهم أن العتابى والآخرون أدخلوا المعنى المتولد من علاقة كلمة بأخرى فى اطار الجملة المفردة فى مجال روح الأسلوب وجعلوا جسده مقصورا على الجانب الحسى منه (الألفاظ) ، وربما كان هذا أقرب الى

---

(٨) أسس النقد الأدبى ص ٣٦٣ .

(٩) فن الشعر ص ١٩٣ .

(١٠) عن اللغة والأدب والنقد ص ٣٦١ (ط / دار المعارف سنة ١٩٨٠ م) .

(١١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ١٦١ ـ تحقيق أبى الفضل طبعة سنة ١٩٥٢ م .

العقل ، وأوضح تشاكلا بين الجانب الحسى للأسلوب وتسميته جسدا، ولكن البقاعى تجاوز ذلك كله وسما عليه ، كما تجلى لك من قبل .

أضف لذلك أن البقاعى لم يسم على سابقين له فحسب بل على محققين محدثين :

يذهب الدكتور « عز الدين اسماعيل » الى أن حل مشكلة اللفظ والمعنى يكمن — عنده — فى القول بالصورة الأولى ، والصورة الثانية.

الأولى : تشمل الدلالة الزمانية « التنسيق الصوتى للعبارة » والدلالة المكانية « المعاني الأول التى تدل عليها الألفاظ » ، فعندما نقول : « باب النجار مكسور » ، فالصورة الأولى تتمثل هنا فى التنسيق الزمنى الصوتى للعبارة كلها على هذا النحو « با — بن — نج — جا — ر — مك — سو — رن » .

وفى الدلالة المكانية المفهومة من الباب والنجار والكسر ، وما دل عليه الوضع التركيبى للجملة .

والأخرى : تشمل ما يفهم أو يحس من وراء الصورة الأولى بعنصريها الزمانى والمكانى ، وليكن ذلك المعنى فى هذه الجملة هو « السخرية » .

ان معرفتنا الدلالة الزمانية والمكانية للتعبير لا يعنى أننا نعرف الصورة الثانية منه (١٢) .

---

(١٢) الأسس الجمالية لعز الدين اسماعيل ص ١٧٣ — ١٧٥ (بايجاز)

ثم يستنتج الأستاذ من هذا أن المعنى لا ينفصل عن اللفظ اذا كنا نتحدث عن معنى اللفظ بما هو عنصر من عنصرى الصورة الأولى ، وهو ينفصل عنه اذا كنا نتحدث عن المعنى الذى يكون الصورة الثانية .

هذا هو الأساس الذى نضعه أمامنا دائما للفصل فى مشكلة اللفظ والمعنى ، ذلك أننا سنجد أن فكرة الصورة الأولى والصورة الثانية فى اللغة ستحل لنا الأشكال دائما ، ونجد أن الذين يربطون بين اللفظ والمعنى (١٣) كانوا يقفون عند الصورة الأولى ويعطونها الأهمية . والذين يفصلون بين اللفظ والمعنى كانوا يتكلمون عن مفهوم المعنى من حيث كونه يمثل الصورة الثانية ، فيعطونه بدورهم أكبر الأهمية . فهؤلاء يحكمون على الصورة الأولى ، وأولئك يحكمون على الصورة الثانية (١٤) .

فى فهمى أن الأستاذ جانب الصواب فيما انتهى اليه ، فعبد القاهر الذى اعترف الأستاذ بأنه يمثل الذين يربطون بين اللفظ والمعنى لا يريد فى حديثه عن اللفظ والمعنى المعنى الأول « الدلالة المكانية بتعبير الأستاذ ، ولو أن هذا المعنى هو المراد فى كلامه وكلام السلف عن اللفظ والمعنى لما كان فيهم من يتوهم انفصال أو تفضيل اللفظ على المعنى أو المعنى على اللفظ ، لأن هذا المعنى الأول « بمفهوم الأستاذ » لا يشغل بال النقاد ، اذ لا أثر للصنعة والموهبة

---

(١٣) يعد الأستاذ من هذا الفريق الامام عبد القاهر .

(١٤) السابق ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

فيه ، فنحن حين نقوله : « باب النجار مكسور » تتساوى دلالته المكانية كما يفهمها الأستاذ مع الدلالة المكانية عنده لقولنا : « مكســـــور باب النجار » ••• الخ مع أن ناشئة القوم عندنا عليم بأن الامام عبدالقاهر وجمهرة البلاغيين يقولون انه اذا ما تغير النظم فلا بد حينئـــذ من أن يتغير المعنى ، فيفرق بين «ان زيدا كالأسد ، وبين كأنّ زيدا أسد»(١٥)

ولعل الدكتور « عز الدين » حسب أن المعانى الثوانى خارجة عن قضية النظم عند الامام ، وذلك ليس بسديد،فالامام قد نفى ذلك وأثبت أن الاستعارة والكناية وما يتراءى فيه المعانى الثوانى بجلاء انما هو من صميم النظم (١٦) •

كذلك جانب الأستاذ الصــــواب حين انتهى الى أن الذين كانوا يفصلون بين اللفظ والمعنى كانوا يتكلمون عن المعنى بما تدل عليــــه الصورة الثانية « عند الأستاذ » ذلك أن «البقاعى» بما ســـبق أن عرضناه ينقض هذا الاستنتاج ، لأن الصورة الثانية عند الأستاذ تطلق على الهدف والغاية من الجملة المفردة التى مثل بها ، وهى السخرية ، بينما «البقاعى» يجعل هذه الجملة بكل ما تشمل عليه ويدخــــــل فى الصورة الأولى أو الثانية عند الأستاذ من قبيل جسد الأسلوب •

فى يقينى أن الدكتور « عز الدين » لو اطلع على موقف «البقاعى» لعدل عما ذهب اليه وانتهى • لكنه اكتفى بأن يقتات فتات موائد النقاد الغربيين فى حين أنه بين يدينا موروث فكرى وعقدى طيب كريم ، فيه الغناء لمن أراد •

---

(١٥) دلائل الاعجاز ص ١٨٢ (تصحيح أحمد مصطفى المراغى ـ طبعة ثانية نشر المكتبة المحمودية التجارية بالأزهر) •
(١٦) السابق ص ٢٥٩ •

الفصل الثانى

مفهومه ــ دعائمه ــ ميدانه

أول ما يسترعى الدارس لنتاج «البقاعى» تسميته تفسيره للقرآن الكريم بنظم الدرر من تنسب الآى والسور .

جعل ما فى الدرر نظما ، وما فى الآى والسور تناسبا وليس ذلك عن غير قصد ، ذلك أن من أسس منهجه الفكرى ولا سيما فى هـــذا التفسير أن « اسم كل شىء دال على جوهره » (١) .

والتقدم الواعى فى نتاجه يكشف عن تحريه الدقة فى تســـميته مؤلفاته ، وتحريه الدقة ــ أيضا ــ فى بيان تناسب اسم كل سورة من القرآن الكريم لمقصودها (٢) .

هو حين جعل ما فى الآى والســـور تناســـبا ، وما فى الدرر نظما كان على وعى بالغ من أمره ، وكان فيما أعلم ينظر الى ما بين مصطلح «النظم» و «التناسب» من مفارقة جوهرية من حيث دلالة المـــادة والتركيب لكل ، وحين ننظر فى كل نجد أن التناسب يســـتمد من مادته «ن٠س٠ب» أن العلائق بين أفراد عالمه جوهرية ، لأن عـــلاقة النسب فى عالم الأنام علائق دم يجرى فى الأوصال ، ويشكل كثيرا من سماتهم الداخلية والخارجية ، وهى كما ترى علائق جوهرية أبدية ، ومثلهـــا فى عالم الكلام ؛ لأنهما عالمان يكادان يسيران على نهج سواء .

أما مصطلح النظم فتعطى دلالته اللغوية أنه ضـــم شىء الى

---

(١) نظم الدرر للبقاعى ٤/١ (مخطوط) .

(٢) سيأتى مزيد تفصيل ودراسة لهذا المبحث الثالث من هذه الدراسة

آخر (٣) وغالبا ما تكون آيات التلاقى بين الأشباه المنظومة غير جوهرية وذلك أقرب الى ضم الدر بعضه لبعض فلو دست بين در حقيقى منظوما حبات زائفة مقاربة للحقيقى جحما وشكلا لما تيسر التفريق بينهما الا لخبير ، وذلك أن جانب المشاكله فى النظم اقوى وينظرها كل أحد ، ولكنه لا يرى جانب المفارقة الجوهرية فيها حين تتشاكل •

أما التناسب فان جانب المباينة والمفارقة أقرب الى العين • فيسرع العقل للحكم بالمخالفة والتقاطع حين ينظر غياب التشاكل الحسى ، ولكنه ان تأمل بعين صقر وبصيرة خبير رأى جانب الاتفاق الجوهرى جد قوى ، وذلك ما نراه فى دنيا الناس حين يحكمون على أخوين غير متشاكلين بانهما غير شقيقين ولو أنهم رصدوا الجوانب الجوهرية بينهما لآمنوا بتآخيهما وذلك هو السر الذى دفع بعض أهل العلم (٤) الى القول بعدم التناسب بين أجزاء القرآن الكريم لأنهم نظروا فى علائق الآيات والسور فوجدوا أنها لا تعتمد على المشاكلة الحسية أو المعنوية فى مستواها الأول ، ولو انهم تدبروا لآمنوا بعظيم التناسب بينها ، ولعلموا أن روحا واحدا يهيمن على كل عنصر من عناصر السورة الواحدة •

لهذا رأينا «البقاعى» يستخدم مصطلح النظم للدرر والتناسب « التفاعل » للآى والسور ، وهو استخدام يكشف به فى ايجاز ولمح خفى عن موقفه وفهمه للمصطلحين ، وعن جوهر تفسيره ومنهجه فيه فكرا وتعبيرا ، وذلك ما فهمت من التأمل فى عنوان تفسيره مرتكزا على منهجه فى التسمية ، وحين نتقدم معه فى مقدمه تدبيره نجده يعرف التناسب كعلم بقوله : « علم تعرف منه علل ترتيب الأجزاء ، وهو سر البلاغة لأدائه الى تحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه الحال » (٥) •

---

(٤) على رأسهم العز بن عبد السلام فى كتابه الاشارة الى الايجاز •
(٥) نظم الدرر للبقاعى ج ١ ق « مخطوط /٢١٣ تفسير بدار الكتب المصرية » •

غير ذى نفع مناقشة مفهوم العام هنا فذاك امر كثر القول فيه ، ولا شك أن البقاعى ينطلق من فهم القوم للعلم ، ولا سيما عند أصحاب الحواشى والتقارير ، وهى جزء من تكوينه الثقافى المهم أن العلم مراد به ادراك للأصول والقواعد عن دليل وامكان استحضارها متى أريد ذلك من خلال هذا الادراك يقف الدارس موقف فقه ومعرفة للعلل المقتضية الاتيان بكل جزئية وعنصر من القرآن الكريم فى الموطن الملائم، والعلة انما هى المقتضى (بالكسر) ، وعليه فانه يمكن ترجمته بعبارة أخرى : (علم التناسب القرآنى هو ادراك المقامات ، والأحوال المقتضية الاتيان بكل عنصر فى موطنه الملائم له مع بقية العناصر) .

وظاهر التعريف يقصر التناسب على بيان الرتبة بين الأجزاء ، وهو واحد من أحوال اللفظ التى ذكرها البلاغيون ، فهل أغفل «البقاعى» الأحوال الأخرى أو نفاها عن مجال التناسب ؟

للاجابة عن هذا نذكر أن «البقاعى» فى بيان التناسب بين الجمل والآيات كان كما يقول : (يمهد لكل جملة مهادا يدل على الحال الذى اقتضى حلولها ، وأوجب ترتيبها على ما قبلها من شكلها ، وما أوجب تأكيدها ، أو اعراءها ، وتقييدها ، ونحو ذلك من أفانين الكلام وأساليب النظام) (٧) .

فالتناسب عنده بهذا يتناول بيان مقتضيات الأحوال لتركيب وترتيب أجزاء الكلام وعناصره ..... الخ .

---

(٦) ينظر فيض الفتاح وعبد الحكيم ج ٢ ص ١٠ ــ ١٨ ، ارشاد السارى ١/١٠٢ .

(٧) مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور . ق/٢ مخطوط للبقاعى رقم ١٩٦٩١ ب ــ دار الكتب المصرية .

و «البقاعي» حين اقتصر على جانب الترتيب فى تعريفه السابق نظر الى قوله بعد ذلك (وهو سر البلاغة لأدائه الى مطابقة المقـــال لمـــا اقتضاه من الحال) ذلك أن المعهود فى تحقيق المطابقة والتركيز على جوانب التركيب (بمفهـــوم البقاعى الآتى بعد) أكثر من الاهتمـــام بالترتيب ، فلعله أراد بما فعل لفت الأذهان الى قيمة جوانب الترتيب فى التناسب القرآنى بعد أن أفاض البلاغيون فى بيان قيمة جـــوانب التركيب فيه •

وشىء آخر هو أن الاقتصار على التصريح بالترتيب فى التعريف انما كان ينظر الى المستوى الأعلى ، ذلك أن التناسب الذى هـــو سر الاعجاز القرآنى يعتمد على نوعين من النظم لأحدهما من الروعة مايفوق الآخر وهما :

(أ) النظم التركيبى :

« وهو نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب (٨) بمعنى أنه يتناول كل مظهر بلاغى فى اطار الجملة سواء كان فى ركنيها أو المتعلقات وان تكاثرت ، ومن هذه المظاهر الترتيب بين عناصر الجملة الواحـــدة كتقديم المسند أو المفعول أو الظرف ، فعلى الرغم من أن الترتيب هنا جزء من النظم الا أن البقاعى لا يضعه فى مقام الترتيب بين الجمل ومن ثم كان الترتيب بين عناصر الجملة الواحدة عنده من قبيـــل التركيب لا الترتيب ولعـــله يريد بهـــذا أن الترتيب لابد أن يســـبقه تركيب فالمفردات لا ترتب ، وانما تركب ليتكون منها جمل ترتب بعد ذلك مع بعضـــــها •

---

(٨) نظم الدرر : ٣/١ مخطوط (النسخة السابقة) •

فكل الأساليب التى تتناول نظم عناصر الجملة الواحدة من غير تحديد لها . تمثل عنده النظم التركيبى الذى لا يكون الا جسد الأسلوب، وهذا النوع من النظم عنده « قريب التناول ، سهل التذوق ، فان كل من سمع القرآن من ذكى وغبى (؟!) يهتز لمعانيه وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط ورهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره وكلما دقق النظر فى المعنى عظم عنده موقع الاعجاز »(٨) .

وكثير من الناس فى صحبة استحضار قواعد علوم البلاغة التى عنى البلاغيون بها تحريرا وتطبيقا يستطيع تناول كثير من ثمر هذا النظم ، ومن هنا يمكن القول بأن ترك «البقاعى» هذا النظم التركيبى فى تعريفه التناسب اشارة الى قيمة هذا النظم ، وذلك ضرب من منهجه فى التقويم والتعبير عنه .

(ب) النظم الترتيبى :

هو « نظم كل جملة مع أختها بالنظر الى الترتيب » (٨) بمعنى أنه يكتنز فى ارتباط كل جملة بعضها ببعض حتى ان كل جملة تكون آخذة بحجزة ما أمامها متصلة بها » (٩) وبيان رتبة كل جملة مما قبلها وبعدها ، والجملة تشكل فيه أصغر جزئية ، فهو اذن يقوم على تبيان العلائق بين وحدات النظم التركيبى ، وهذا النظم هو الدعامة الرئيسة للتناسب عنده ومهمته بناء نتاج النظم التركيبى فى هيكل متكامل متفاعل متناسب بحيث تكون كل جزئية «الجملة» آخذة بحجزة ما أمامها متصلة بها فى اطار السورة كلها .

تأمل قوله : « آخذه بحجزة » فهو يعطى ايحاء بشدة الاحتياج

---

(٩) السابق ٤١٣/٦ ج

الى هذا الأخذ وأنه فى قوة . كما أن التعبير بالحجزة يدل على شـــدة التمكن والاعتلاق ، وأنه يكون بأواسط الاشياء لا اطرافها . فلا يكون من قبيل ما يسمى بالربط الجزئى بين الآيات أو الجمل ، وهو الـــذى يعيبه بعض النقاد المحدثين على بعض الأعمال الابداعية التراثيـــــة «فالبقاعى» مع حرصه على تبيان هذا الربط الجزئى بين الجمل والآيات فى السورة الا انه يشترط لكل سورة مبدأ واحدا وروحا يهيمن على كل عنصر من عناصرها دق أو جل حتى يشمل السورة كلها .

المهم أن «البقاعى» رد الاعجاز القرآنى الى الاعتلاق بين الجمل التى ركبت عناصرها على وجه من الاعجاز بديع وما عـــلا الجملة الى السورة كلها فى القرآن كله . والفلاسفة والنقاد من قـــديم يردون الجمال فى الأشياء كلها حسية أو عقلية الى ما بين عناصر الأشياء من علائق وانسجام «فأرسطو» مثلا يقول « الكائن أو الشىء المكون من أجزاء متباينة لا يتم جماله ما لم ترتب أجزاؤه فى نظام ، وتتخذ أبعادا ليست تعسفية ذلك أن الجمال ما هو الا التنسيق والعظمة » (١٠) .

ونراه أيضا يرد مبعث السرور غينا ازاء الأشـــــياء السارة الى عنصر الترتيب (١١) وقبله ذهب «أفلاطون» الى أن التناسب عنصر رئيس من عناصر الجمال (١٢) وكذلك فعل أفلاطون (١٣) والأشـــياء فى نظر «أوعسطين» لا تكون جميلة الا اذا تشابهت أجزاؤها وانتظمها

---

(١٠) ينظر : فى الشـــعر ص ٦٠ ترجمة شكرى عياد ط ١٣٨٦ هـ دار الكتاب العربى وعلم الجمال / دينيس هوسمان /٢٤ ترجمة أميرة مطر

(١١) علم الجمال ـ هوسمان /٢٦ ـ ٢٧ .

(١٢) فلسفة الجمال للديدى / ٨٣ ـ ٨٦ .

(١٣) علم الجمال دينيس / ٢٧ .

انسجام واحد (١٤) ومثله عند «سانت توماس » ، وان أضـاف الى التناسب التكامل والوضوح حتى يتحقـق الجمـال (١٤) ويذهب «سيرل بيرت» إلى أن الذى يكـون جوهر الجمال هو وجود نوع من النظام أو الترتيب ليس سـطحيا أو دخيـلا ، ولكنـه طبيعى حيوى كالخصائص التى تقرر نمو النبات (١٥) وما قاله «سيرلبيرت» يتطابق مع ما يذهب اليه «البقاعى» منذ خمسة قرون مضت •

كذلك يرى «هاربرت» وأتباعه أن الجمال يتكون فى صـورة خاصة ، وعلاقة بين الاجزاء فى المفهوم (١٦) ويعد « وليم هوجارد » التناسب والتنوع على رأس العـوامل والمؤثرات التى تؤسس فى مجموعها سمة الجمال فى الأشياء(١٧) وظاهرة الجمال عنـد « كانط » انما تستثير اعجابنا • لأنها تعبر عن الانسجام أو النظام وهـذا هو قوام الجمال ، ومناط تقريرنا واعجابنا بالشىء الجميل فى مجـال الطبيعه (١٨) •

خلاصة القول ان جمهرة من الفلاسفة والنقاد قد ردوا مظهـر الجمال فى الأشياء الى ما بين عناصرها من تناسب وانسجام وترتيب قائم على ما بينها من علائق ، وبذلك « فالصورة الجميله بنيـة حيـه تشتبك أجزاؤها فى علاقات فيما بينها ، وهى فى مجمـوعها تكون تلك الوحدة التى هى فى الواقع نتيجة لتلك العلاقات » (١٩) •

---

(١٤) الأسس الجمالية /٤٧ •

(١٥) كيف يعمل العقل /٢٤٥ (الكتاب الثانى) ترجمة محمد خلف الله أحمـد •

(١٦) الأسس الجمالية / ٥٦ ، ١١٨ ـ ١١٩ •

(١٧) فلسفة الجمال ونشات الفنون الجميلة د/ محمد على أبوريان /٢٨ ، ٢٩ . ٣١ •

(١٨) السابق / ٣٦ •

(١٩) الأسس الجمالية لعز الدين سماعيل / ١٢٥ •

أستطيع من خلال ما مضى القول بأن «البقاعى» حين جعــل من أسس الاعجاز القرآنى التناسب كان على وعى من أمره ، وكان بصيرا حين جعل الاعتلاق بين عناصره ليس سطحيا أو دخيلا وانما يرجــع الى محور واحد يحرص « البقاعى » على تحديده فى مفتتح كل سورة ويسميه المقصود الكلى ، ومعرفة هذا المقصود هى المفيدة لمعرفة المقصود من جميع جملها (٢٠) ٠

وتحرير المقصود الكلى لا يأتى من فراغ وانما من خلال التــدبر البصير فى الجزئيات ، فيقف على المظهر المقصود من الــــكلام وسره ولبابه (٢١) ومعنى هذا أنه لا انفكاك بين النظم التركيبى والترتيبى ، كل منهما يعطى الآخر ويأخذ منه وقد أكد البقاعى هذا المعنى بقــــوله « المقصود بالترتيب معان جليلة الوصــف بديعة الرصــف علية الأمر عظيمة القدر مباعدة لمعانى الكلام على أنها منها أخذت » (٢٢) ومعنى هذا أن المتدبر للقرآن يظل يتنقل بين التأمل فى الجزء والتأمل فى الكل، فيعيش فى حركة دائرية وهو يحاول تأويل النص وتدبره ، وهو مايشير اليه المفكر الألمــانى «شليرماخر» (ت١٨٤٢م) حيث يقول : لكى نفهم العناصر الجزئية فى النص لا بد أولا من فهم النص فى كليته وهـــذا الفهم للنص فى كليته لابد أن ينبع من فهم العناصر الجزئية المكــونة له (٢٣) ٠

قارىء هذا النص يتداعى الى عقله موقف «البقاعى» فى نهجــه

---

(٢٠) نظم الدرر البقاعى ١/٢ (مخطوط) ٠
(٢١) السابق ٦/٤١٣ ٠
(٢٢) السابق ١/٣ ٠
(٢٣) مجلة فصول / ١٤٥ العدد /٣ - المجلد / ١

ومسيرته فى تفسيره ، فهو يدور بين تحليل الجزئيات فى ضوء المقصود الكلى ، وتحرير المقصود فى ضوء تركيب الجزئيات ولذلك نراه يقوم بتعديل خطته ومنهجه فى تفسيره عندما يصل الى سورة « سبأ » فقام بالتحرير الدقيق لمقصود السور السابقة عليها وتفسير جزئياتها على ما ارتضاه (٢٤) .

مما يؤكد أنه دائم الحركة الدائرية الترددية بين المقصود الكلى والجزئيات فى الاطار العام للسورة ، ثم القرآن كله لرحابة ميدان التناسب .

واذا كان النظم الترتيبى والتركيبى كل منهما يعتمد على الآخر أخذا وعطاء فان «البقاعى» يذهب الى أن الترتيبى بحاجة شديدة الى الوعى واليقظة لأنه فى غاية الخفاء فاذا أراد المتدبر العبور من النظم التركيبى الآنف تبيانه الى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفى عليه وجه ذلك ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد ، فظن أنها متنافرة ، فحصل له من انقبض والكرب أضعاف ما حصل له بالسماع من الهز والبسط فربما شككه ذلك وزلزل ايمانه وزحزح ايقانه وربما وقف ذلك بكثير من المخالفين فى هذا الدين(٢٥) .

كأنى بالبقاعى يستشعر منذ خمسة قرون المواطن التى سيحاول بعض المستشرقين(٢٦) والأدعياء الطعن منها فى أسلوب القرآن .

---

(٢٤) نظم الدرر ٢/١٦٣ ـ ١٦٤ ، ومصاعد النظر . ق/٧ .

(٢٥) نظم الدرر ١/٣ .

(٢٦) ينظر مذاهب التفسير الاسلامى ، لجولد تسيهر ص٤١٢ ترجمة النجار ـ طبعة سنة ١٣٧٤ هـ .

ان سبب هذا الجهل بالاعتلاق خفاء مظاهره بين الجـــزئيات «الجمل» بحيث لا يستجيها من كان على بصيرته غشاوة ، ولـــكن من اتخذ الوسائل الى فهم القرآن « واستعان بالله ودوام الطـرق لأبواب الفرج بانعام التأمل ، واظهاره العجز والوثوق بأنه « أى القرآن » فى الذروة من احكام الربط ، كما كان فى الاوج من حسن المعنى واللفظ ، لكونه كلام من جل عن شوائب النقص ، وحاز صفات الـكمال ايمانا بالغيب وتصديقا للرب قائلا ما قال الراسخون فى العلم :

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » •(آل عمران : ٨) انفتح له ذلك الباب ولاحت من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار ، ورقص الفكر منه طربا ، وسـكر ـ والله ـ استغرابا وعجبا ، وطاش لعظمة ذلك جنانه ، ورسـخ من غير مرية ايمانه ، ورأى أن المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف ، بديعة الرصف ، عليه الأمر ، عظيمة القدر ، مباعدة لمبانى الكلام على أنها منها أخذت (٢٧) •

النظم الترتيبى ـ اذن ـ يأتيه سمو أثره ، وصـــعوبة تأمله وادراكه من خفائه وشموله وهيمنته على كل عنصر بحيث يحتـاج من المتأمل الى رحابة أفق وعمق فهم ، وبصيرة ، وقدرة على الاختـزان الأمين لدقائق ورقائق البيان ، والتتبع الدقيق لكل حركة جـزئية ، يرصدها بعين صقر ، ليحظى بالروح الممسك بكل صغيرة وكبـيرة ، وشاردة بعد أن ألقت اليه مقاليدها ، وذلك أمر صعب مراسه •

ومن ثم كان مثير اللذة والمتعة غنيا ، ذلك ان هذه الأشياء انمـا يثيرها فى الانسان الانتباه الذى « فى أساسه يتوقف على مقدرتنـا

---

(٢٧) نظم الدرر ١/٣ (مخطوط) •

على أن ندرك شيئا من العناصر المجموعة فى نظام موحد ، وانما يحب الشخص الصورة أو القصة أو اللحن حينما تكون هذه معقدة ومنوعة لدرجة يبقى بها الانتباه دائم النشاط (٢٨) ٠

بهذا نرى «البقاعى» يعتمد على أنه لا يستطاع تحـديد المعنى الدقيق لعنصر ما الا من خـلال المقصـود الكلى للسـورة ، وذلك أمر قد صرح بطلبه فى الأعمال الابداعية ، وأكده النقد الأدبى الحـديث بعد ذلك بعدة قرون وشواهد ذلك من مصادر ومراجع النقـد الحديث بين يدى جد كثيرة يضيق المقام عن ذكرها (٢٩) ٠

---

(٢٨) كيف يعمل العقـل لسـيرل بيرت ٢٤٦/٢ ، ترجمـة محمد خلف الله أحمد ٠

(٢٩) راجع ان أحببت : النقد الأدبى لوليم فان اوكونور /١٠٦ - ترجمة صـلاح أحمـد ابراهيم وقواعد النقد الأدبى لكروبى /٥٦ ، ٥٧ ، وكيف يعمل العقل ٢٤٢/٢ وفلسفة الجمال لعبد الفتاح الديدى /٢١١ - ٢١٢ ، وفلسفة وتن لزكى نجيب محمود / ٢١١ ـ ٢١٢ ، وكتاب : كانط أو الفلسفة النقدية / ٣٠٤ لزكريا ابراهيم ومشكلة المعنى فى النقد الحديث لناصـف / ٧٩ ، ولنقد التحليلى لأحمد الصـاوى / ١٢٩ ، ١٣٨ والنقـد الانجليزى الحديث لماهر شفيق / ١٧ ، ومجلة فصول / ٩٧ عدد /٢، مجلد / ١ ٠

المبحث الأول

جوانب تناسب الكلمة مع السـياق والقصد

- من حيث مادتها
- من حيث هيئتها
- من حيث أدائها
- من حيث رسمها
- من حيث الخصائص الصوتية

مدخـــــل :

لمــا كان القرآن كلمة الله جل جلاله المعجزة ، وكان الله العليم بكل شيء الخبير بجميع مقتضيات أحوال اللفظ القرآنى ، وأحوال المتلقين على اختلافهم ••• كان حتما أن يستوى البيان القرآنى عــلى عرش الاعجـــاز •

والدرس البلاغى للقرآن الكريم لا يرمى قط الى التدليل عــلى ذلك فقد أضحى حقيقة الحق نفسه ، لا يتوقف فيه الا مأفون وانمــا يرمى الدرس البلاغى اليوم الى تبيان النهج الذى سلك القرآن لغذاء وامتاع القلوب والعقول قبل كل شيء ، ثم تقريب الأمر ورفع المنــائر على السبل لمن يبغى فيها مسيرا •

ولمــا كانت الكلمة القرآنية ذات جوانب متعددة :

أ ــ جانب معجمى : يتناول مداول مادتها الذى ترثه من أسرتها

ب ــ جانب صرفى : يتناول شكلها التكوينى الذى تبرز فيه •

جـ ــ جانب أدائى : يتناول نطقها وتلاوتها الذى تتلقاه الاذن •

د ــ جانب املائى : يتناول تصويرها الخطى الذى تتلقاه العين•

هـ ــ جانب صوتى تجريدى : يتناول جرسها وظواهرها الصوتية الكامنة فى حروفها من حيث هى ، والدراسة لا تتنــاوله الا فى فواتح السـور •

و ــ جانب نحوى : يتناول موقعها وعلاقتها بالأخريات ، وهــو ما ينمو التعبير ويتسامى من خلاله •

لمـــا كانت كذلك ، فانى أتناول بالدراسة هنا تبيان منهج البقاعى تنظيرا وتطبيقا لابراز تناسب الكلمة من هذه الجوانب مع الســـــياق والقصـــــد •

وجلى أنه لن يكون تناولنا للكلمة الواحدة من كل هـــذه الجوانب دفعة واحدة ، فذلك مقام تسكب دونه العبرات ، وتتقطع الأعناق أنى لبشر غير نبى أن يستطيع النهوض له وبه ؟

لكنى التزم بما تناوله « البقاعى » أيا كان ذلك الجانب ، على انه تجدر الاشارة الى أن بعض الجوانب قد تتدخل ، كالصوتى التجريدى والآدائى والصرفى والخطى ؛ فى الكلمة الواحدة ومن ثم يكـــون الأمر جد عسير ، لذلك سعيت فى دراســـة التنـــاسب من حيث الخصـــائص الصوتية الى ما لا قبل لنا بلمح بقية الجوانب معه فى كلمة واحدة ،وهو ما يسمى بفواتح السور (الحروف المقطعة) •

كذلك لم أتناول فى هذا المبحث الجانب النحوى من الكلمـــة لأنه يتجاوز حدود الكلمة بل لا وجود له الا فى تجاوز فرديتهـــا ، وذلك ما ستراه فى المبحث الثانى حرصا على تماسك فصول الدراسة وتناسقها وانسجامها •

* * *

الفصل الأول

تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث مادتها

أريد بمادة الكلمة ما ترثه من اسرتها ، وتشترك فيه مع شقيقاتها في هذه الاسرة ، وما تكسبه هي خلال رحلتها عبر الاستعمالات ، والبقاعي في ابراز التناسب من هذه الجهة نهج يركز عليه ذو محورين

الأول : الرجوع بالكلمة احيانا كثيرة الى اصلها الدلالي الحسي •

الآخر : الوقوف عند بعض الألفاظ وتحليل دلالتها في بقية افراد اسرتها المتولدة من التقلبات الصوتية ، اذ يحاول أن يكشف عن المحور الذي ترتكز عليه دلالة كل كلمة من كلمات هذه الأسرة ، وهو ما يسمى « بدوران المادة حول معنى واحد » •

« والبقاعي » يستطرد في هذا كثيرا حتى ان المادة اللغويه الواحدة لتشغل عدة صفحات من تفسيره المخطوط ذي القطع الكبير ، مما قد يدفع الى قلب القارىء العجل السأم والضجر ، غير ان التريث والمثابرة والوقوف على مراد الرجل من ذلك يدفعك الى حمد صنيعه : ان منهج الشيخ في تفسيره هذا قائم على أساس فكرة التناسب ـ كما وعاها ونماها ـ وهي فكرة ترتكز على وجود محور تدور عليه الاشياء التي قد يحسب انها متقاطعة ومتدابرة ، ومن ثم كان « البقاعي » حريصا على تبيان هذا المحور ، أو هذا الروح الساري في دلالات الكلمات ذات الاسرة الواحدة •

محوران أبصرتهما في منهج « البقاعي » في تدبره تناسب عناصر البيان مع السياق والقصد ممثلة في الكلمة من حيث مادتها •

* * *

أولى وقفاتنا معه فى تدبره تهذيب الحـــق عـــز وعـــلا بنى آدم وتربيتهم بما يتلاءم مع خصائص أهل الفضل الادراكية ، دون أن يشعر أهل القطيعة ، وذلك فى قول الحق عز وعلا :

« وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مســـتقر ومتاع الى حين » (البقرة : ٣٦)

يقول الشيخ مبرزا التناسب العالى المعجز وعطاءه الثرى الطيب:

« الامتنـــاع هو الانتفـــاع بالمنتفـــع به وقتـــا منقطعـــا يعرف نقصه بما هو أفضـــل منـــه ..... ففيـــه اشعار بانقطاع الانتفاع بما هو فى هذه الدنيا ، ونقص بما به الانتفاع عن محل ما كنا فيـــه من حيث ان لفظ « المتاع » اطلق فى لسان العرب على « الجيفة » التى هى متاع المضطر ، وارزاق سباع الحيوان وكلابها ، فكذلك الدنيا هى جيفة ، متع بها أهل الاضطرار بالهبوط من الجنة بها وجعلها حـــظ من لا خلاق له فى الآخرة »(١)

لعل « البقاعى » يستحضر هنا عنصرين من العطاء الدلالى لمادة (م.ت.ع) هما الانقطاع والحقارة(٢) وذلك ما ورثته الفاظ هذه المادة

---

(١) نظم الدرر للبقاعى ٤٩/١ « مخطوط » .

(٢) يقال متع النهار اذا ارتفع قبل الزوال ، ومتع الضحى بلغ آخر غايته ، ومتع السراب ارتفع ، والمتعة أن تتزوج امرأة تتمتـــع بها أياما ثم تخلى سبيلها ، وان تضم عمرة الى حجك ، وما يتبلغ به من الزاد وما وصلت به المرأة بعد الطلاق . وأطلق المتاع على ما قابل الحلية (الذهب والفضة) « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » (الرعد/١٧) كل ذلك يبرز فيه معنى الانقطاع والحقارة .

ينظر لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط والمفردات للراغب الاصفهانى مادة (متع) .

وعلى رأسها لفظ « متاع » ولذلك لم يضفه القرآن الكريم الى الآخـــرة بينما جعله من حظ الدنيا . يقول تعالى : « ذلك متاع الحياة الدنيـــا والله عنده حسن المآب » (آل عمران . ١٤) ، « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور »(آل عمران : ١٨٥) ؛ « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهــو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا »(القصص : ٦٠) ، « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور »(الحديد . ٢٠)

بل انه ليوازن بين الآخرة والدنيا فيطلق على الدنيا متاعا ويصفه بالقلة ..

يقول تعالى : « وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع » (الرعد:٢٦) «فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل »(التوبة : ٣٨)

ومما يبرز حقارة نعيم الحياة الدنيا ما أثر عن أهل الحكمـــة : « الدنيا جيفة وطلابها كلاب »(٣)

كل ذلك يقوم عوج الوهم حين يستشعر من ظاهر لفظ « متـــاع » مخايل البهرج والاغراء ، ولاسيما فى صحبة قوله « مستقر » والتعدية بالى دون اللام « الى حين » .

ان الفاقهين ـــ والبقاعى من شيوخهم ـــ يرون فى هذه المصاحبات التعبيرية مضافا اليها التعدية بفى وتقديم « لكم » وتنكرير « حين » تأكيدا وتقريرا بالغا لانقطاع نعيم الدنيا ، وتنقير القرآن الكريم بنى آدم من الاستكانة اليه ، والرضا به غاية . وان كلمة « مستقر » لايعطى ـــ هنا ـــ معنى الخلود لانه علق به (فى) دون (على) أى ان كمال

---

(٣) نص الصاغانى على أن ذلك ليس بحـديث نبوى ، كما قد يظن راجع الموضوعات للصاغانى ص ٣٦ (ط / ١٤٠١ هـ ٠ تحقيق نجم خلف الله

قرارهم اللازم لعدم الحركة انما يكون فيها لا عليها ، وكأنى به يشير الى حال بنى آدم فى الأرض وعليها . لهم فى الأرض مستقر من بعد الموت ، ولهم عليها متاع الى حين من قبل الموت ، ولاسيما ان تنكير لفظ « حين » يوحى بحقارته وقربه .

كل ذلك يبدو لى انه كان يعتمل فى عقل « البقاعى » وقلبه ، وهو يتدبر هذه الآية ، وما يلوح من آيات التناسب الدقيق لاستخدام لفظ متاع ، وما فيها من تعليم للمنهج الذى يجدر بالعاقل ان سلكه فى تعامله مع متاع الدنيا ، انه منهج المضطر الذى رسمه قول الحق عز وعلا : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » (البقرة : ١٧٣)

لقد كان للموروث الدلالى لهذه الكلمة « متاع » وما معها من مصاحبات لغوية وتركيبية على لا حب هذا السياق الاقتدار الأسمى والأسنى على ابراز العطاء المهذب بنى آدم ، كيما يقوموا بحقوق الخلافة حق قيام . وقد كان « البقاعى » الفقيه لهذا الاقتدار ، فابرزه فى دقة وايجاز .

* * *

وقد يعبر القرآن الكريم بكلمة — وهو يحكى مقال قوم — ليكشف بها فى سياقها ومصاحباتها اللغوية عما يضطرم فى خبايا النفوس ، فتكون الفاضحة لهم ، وذلك ما يلمح « البقاعى » آياته فى قول الحق — عز وعلا — حاكيا مقام المنافقين فى سورة « الاحزاب » :

« واذ قالت طائفة منهم : يأهل يثرب لا مقام لكم ، فارجعوا .. » (الاحزاب : ١٣)

ان كلمة « يثرب » لم ترد فى الذكر الحكيم فى غير هـذه الآية الكريمة ، ووردت كلمة « تثريب » وهى من أسرتها « الثرب » فى سورة (يوسف : ٩٢)

« لا تثريب عليكم اليوم »

والبقاعى يشير الى ان المنافقين « عدلوا عن الاسم الذى وسمها به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المدينة ، وطيبة(٤) مع حسنه الى الاسم الذى كانت تدعى به قديما مع احتمال قبحه باشتقاقه من الثرب الذى هو اللوم والتعنيف اظهارا للعدول عن الاسلام »(٥)

فكلمة « يثرب » بما تحمله من دلالات وايحاءات ورثتها من الجذر الاشتقاقى لمادتها وما اكتسبته من حياتها عبر تاريخ الاستعمال بهـا وما تفجره من ذكريات وعهود بالحمى وما يتقاطر من حروفها من شنآن، بذلك كله فى صحبة دلالات المصاحبات اللغوية مثل (طائفة ، والنداء بيا ، واستخدام كلمة أهل ، وتأنيث الفعل (قالت) كل ذلك على لا حب

---

(٤) فى البخـارى (كتاب الحج . باب فضـل المدينة) بسنده عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب ، وهى المدينة . تنفى الناس ، كما ينفى الكير خبث الحديد » . وفى مسند أحمد ، عن البراء بن عازب رفعه : من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله . هى طابة ، هى طابة » وروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه نهى أن يقال للمدينة يثرب ، وسماها طابة ، ولعله كره تســميتها يثرب لما فيه من معنى التثريب الذى هو التـأنيب والتعيير والاستقصاء فى اللوم ، والافساد والتخليط » ينظر شرح النووى صـحيح مسلم : كتاب الحج ، وارشــاد السـارى : كتاب الحج ، ولســان العرب لابن منظور : مادة (ثرب) .

(٥) نظم الدرر للبقاعى ١/٤٥٢ (مخطوط) .

سياق تبيان حقيقة المنافقين حين تكون الشدة خاصة ، بكل ذلك تكشف هذه الكلمة ما يعتمل فى دخيلة قلوبهم ويتاجج فى افئدتهم • وكأنهم يريدون بالعودة الى الاسم القديم لهذه البقعة الذى كانت تسمى به من قبل مقدم المصطفى — صلى الله عليه وسلم — العودة الى الحال العقدى الذى كانوا عليه اذاك ، وكأنهم — ايضا — يشيرون الى يوم الانصار وتعنيفهم على ما هم فيه من اسلام ، فتسرب ما فى نفــوس أولئــك المنافقين وفاض من هذه الكلمة ، فكانت الكاشفة الفاضحة ، وهى التى ارادوا منها أن يكون الراشقة قلوب الانصار الصائدة افئدتهم ، الاسره البابهم فيكونون كما أراد المنافقون منهم ولهم •

ان فى وقفة البقاعى والمفسرين من قبله ومن بعده امام هذه الكلمة دحض لما يهتف به بعض المحدثين من مؤاخذة للموروث البلاغى والنقدى بعدم ملاحظة مطابقة البيان لمقتضى الأحوال الداخلية التى تمر بهـــا النفوس المتكلمة فتلتقط الاسرار النفسية من بين ثنايا الاسرار اللغوية•

ومثل ذلك ما نجده من البلاغيين والمفسرين عند تدبرهم قول الحق عز وعلا — حاكيا عن سيدنا زكريا « واشتعل الرأس شيبا » وحاكيا عن السيدة أم مريم « وانى وضعتها انثى » • بل ان مجرد قراءة آخر الفصل الذى عقده عبد القاهر لربط الكلام بان وأغنائها عن الفاء كاف لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد(٦)

* * *

---

(٦) يقول الامام « واعلم انها (أى أن) قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك أيها المتكلم فى الذى كان أنه لا يكون وذلك قولك للشىء هو بمرأى من المخاطب ومسمع انه كان من الأمر ما ترى وكان منى الى فلان احسان ومعروف ثم انه جعل جزائى ما رأيت فتجعلك كانك ترد على نفسك ظنك الذى ظننت وتبين الخطأ الذى توهمت » ينظر دلائل الاعجاز ص ٢٢٣ تحقيق المراغى •

اذا كان « البقاعى » قد لمح فى استخدام كلمة « يثرب » كشفا عما يضطرم فى نفوس المنافقين ، فانه قد أبصر فى التعبيـر القـرآنى عن ما ترسب فى عقولهم من أهوال الموقف نفسـه (غزوة الأحزاب) بلفظ قد يتداعى الى بعض الاوهام انه مرادف لغيره ، فاذا به يكشف عن حقيقة تلك العقول ومبلغ ما تقتدر عليه من ادراك :

يقول الحق عز وعلا :

« يحسبون الاحزاب لم يذهبوا ، وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن انبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا »(الاحزاب : ٢٠)

عبر القرآن الكريم هنا عما ادركته عقول المنافقين من هول الأحداث بالفعل « حسب » دون « ظن » لما بينهما من مفارقة فى الدلالة ، ينقلها عن ابى الحسن الحرالى (٧) فيقول :

« الحسبان يقع فيما هو من نوع ما فطر الإنسان عليه واستقر عادة له ، والظن فيما هو من المعلوم المأخوذ بالدليل والعلم . فكـان ضعف علم العالم ظن ، وضعف عقل العاقل حسبان »(٨)

---

(٧) هو : على بن أحمد بن الحسن بن ابراهيم التجيبى (ت ٦٣٧هـ) له تفسير القرآن الكريم ، وشرح أسماء الله الحسنى وشرح أسماء النبى صلى الله عليه وسلم ، ومفتاح الباب المقفل لفهم الكتاب المنزل ، جعله قوانين كقوانين أصول الفقه ، وقد حققته وعلقت عليه ، وسأنشره قريبا . وقد كان عصرى محيى الدين بن عربى ، وضريب له فى عالم التصوف ، فلسفة وسلوكا . راجع طبقات المفسرين للسيوطى ص ٧٦ .

(٨) نظم الدرر للبقاعى ٤/٢٥٥ « مخطوط » .

ونحن اذا ما نظرنا فى استخدام القرآن الكريم للفعل (حسب) والفعل (ظن) ألفينا الفعل (حسب) يأتى فى سياق يدل على ان ماوقع انما هو خطأ أو ضلال ، أو سياق ذم ، أو نهى عن قبيح أو انكار وتوبيخ من ذلك قوله تعالى :

« أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنـــــون » (العنكبوت : ٢) ٠ « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم »(البقرة : ٢١٤) ، « فلما رأته حسبته لجة »(النمل:٤٤) « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون »(ابراهيم : ٤٢) ، « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب »(النمل:٨٨) ، « ايحسب الانسان ان يترك سدى »(القيامة : ٣٦) ، « يحسبه الظمـآن ماء » (النور : ٣٩) ٠٠٠٠ الخ الآيات

كل ذلك يكشف عن طبيعة هذا الفعل من انه ناجم عن ضعف عقل العاقل ٠

اما الفعل « ظن » فان الاستخدام القـــرآنى له يأتى به — فى الغالب — فى سياق يدل على ان ما وقع حق وصواب ، أو هو قريب من الصواب ، أو فى قوته ، ولو باعتقاد فاعله ٠ يقول تعالى :

« انى ظننت أنى ملاق حسابيه »(الحاقة : ٢٠) ، « الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون »(البقرة : ٤٦) ، « وقال للذين ظن انه ناج منهما »(يوسف:٤٢) ، « وظن داود انما فتناه »(ص:٢٤) « ان ظنا ان يقيما حدود الله » (البقرة : ٢٣٠) « وظنـــوا انهم قـــد احيط بهم » ٠٠٠ الخ الآيات المباركات ٠ وفى هذا توثيـــق لمـــا ذكـــره « البقاعى » من فرق بين الفعلين ، ولعل فيما ذكر الراغب الاصفهانى من قبل الحرالى تبيانا لجانب آخر من المفارقة بينهما :

يقول : « والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير ان يخطر الآخر بباله ، فيحسبه ويعقد عليه الأصبع ، ويكون بعرض ان يعتريه فيه شك ، ويقارب ذلك الظن ، لكن الظن ان يخطر النقيضين بباله ، فيغلب احدهما علي الآخر »(٩)

وهذا الفرق يجلى ما يتلبس به الحسبان من بعد عن الحقيقة وذلك ما يتناسق مع السياق الذى تنساب آية الاحزاب على لا حبه فيكشف « البقاعى » عن بعض ملامح هذا التناسب والتناسق بقوله :

« كأنهم لما ذهب (أى الخوف) استمروا خاضعين لم يطلقوا ألسنتهم ، ولا أعلوا كلمتهم فأخبر تعالى تحقيقا لقوله الذى فى جنبهم ان المانع الذى ذكره لم يزل من عندهم لفرط جنبهم(١٠) فقال تحقيقا لذلك ، وجوابا ان قال : قد ذهب الخوف ، فمالهم ما سلموا «يحسبون» أى يظنون(١١) بضعف عقولهم اى فى هذا المجال ، وقد ذهب الخوف لشدة جبنهم ، وما رسخ عندهم من الخوف (الاحزاب) وقد علمتم انهم ذهبوا (لم يذهبوا) بل غابوا خداعا ، وعبر بالحسبان لانه ، كما مضى عن الحرالى فى البقرة ما يقع ، فيما هو من نوع ما فطر الانسان عليه واستقر عادة له ، والظن فيما هو من المعلوم المأخوذ بالدليل والعلم، فكان ضعف علم العالم ظن ، وضعف عقل العاقل حسبان »(١٢)

---

(٩) المفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهانى ،مادة (حسب)

(١٠) يشير بذلك الى قوله تعالى قبل ذلك (اشحة عليكم ، فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد ، اشحة على الخير اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ، الأحزاب ١٩) .

(١١) تفسير البقاعى « يحسبون » بيظنون لا يعنى انهما مترادفان أو متماثلات دلالة ، ولذلك قال بعده « لضعف عقولهم » فبين بهذا القيد فرق ما بينهما .

(١٢) نظم الدرر للبقاعى ٢٥٥/٤ (مخطوط) .

وليس من شك فى ان الضعف الذى يعترى العقـل أشـد سـوء مما يعترى العلم ، ولاسيما ان الثانى يمكن زواله ، فكان ما فجر ضعف عقل العاقل أشد وانكى ، وفى هذا تبيان لمبلغ ما سيطر على المنافقين من خوف ، حتى انه افسد عقولهم واذهلها بل اذهبها .

ولا يخفى على بصير فرق ما بين خوف يترتب عليه ضعف عقـل العاقل وخوف يترتب عليه ضعف علم العالم . ان واقع الحياة ليؤكد ظهور اثر ادنى درجات الخوف على علم العالم حين يعتريه لكنه لـن يضعف عقل العاقل الا ما كان من الخوف عظيما .

وهكذا يتجلى عظيم تناسب التعبير بقوله يحسبون دون يظنون ، وفاعلية ذلك فى تبيان عظيم ما هيمن عليهم من خوف ووجل . جعـل أعينهم تدور ، وعقولهم لا تعى ، وليس أشد على المرء مما هو مذهب منه جوهر انسانيته .

* * *

يتوقف « البقاعى » ايضا عند تعبير القرآن الكريم عن قرى قوم « لوط » عليه السلام بالمؤتفكات فى قوله تعالى :

« ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ، قـوم نوح ، وعـاد وثمـود وقوم ابراهيم واصحاب مدين ، والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينـات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(التوبة : ٧٠) .

المثابرة فى التدبر تكشف عن التناسب المانع بين التعبير بالمؤتفكات وطبيعة فعل قوم « لوط » عليه السلام الذى كان ذلك القلب جزاء وفاقا والتناسب البديع بين ذلك وطبيعة المنـافقين الذين كان سـياق الآية للحديث عنهم ، ذلك ان الآيات من أول قوله تعالى : « لو كان عرضـا

قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ... » (الآية : ٤٢ ــ التوبة) الى آخر السورة للحديث عن المنافقين وذلك ما فعل الشيخ . يقول ــ رحمه الله تعالى :

« عبر عنهم بالمؤتفكات ، لأن القصص للمنافقين الذين مبنى أمرهم على الكذب ، وصرف الأمور عن ظواهرها . فالمعنى أن اولئك لما قلبوا فعل النكاح عن وجهه عوقبوا بقلب مدائنهم ، فهؤلاء جديرون بمثل هذه العقوبة . لقلب القلب عن وجهه ، ومادة « أفك » بكل ترتيب تدور على القلب »(١٣)

أبصر الشيخ أواصر القربى بين الموروث الدلالى لكلمة « المؤتفكات » وطبيعة السياق الخاص والعام الذى توالت الآيات على لاحبه . استطاع الشيخ ان يبرز اقتدار لفظ ذى موروث دلالى وعطاء تشكيلى(١٤) على ان يرسم صورة شاخصة للعيان تصور لك هذه القرى المنقلبة رأسا على عقب ، جزاءا على صنيع هو من جنس قلب الحقائق والوظائف فى عالم الخلق ، وتصور فى الوقت ذاته حقيقة من يتحدث السياق العام عنهم (المنافقين) والمصير الذى يتلهف عليهم ، ويتهالك على الوقوع بهم جزاء ما قلبوا وظائف قلوبهم .

* * *

اذا كان ما مضى وقفة عند تناسب الجزاء الدنيوى لفعلة نكراء صورته كلمة فى سياق خاص وعلم بموروثها الدلالى ، فان للبقاع وقفة

---

(١٣) السابق ٢/٣٣٣ .

(١٤) يشير الى الاتيان بهذا اللفظ جمع مؤنث سالم الموحى بالضعف والهوان حقيقة ومكانة . ذلك أن جمع السلامة يفيد القلة والتأنيث يفيد الضعف .

اخرى عند تناسب الجزاء الأخروي لفظة يحسب جهالة أنها من خصائص العظماء فى هذه الغبراء ، وذلك فى قوله تعالى :

« ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده • يحسب أن ماله أخلده • كلا لينبذن فى الحطمة »(الهمزة : ١ — ٤)

يقول الشيخ : « لينبذن : أى ليطرحن بعد موته طرح ما هو خفيف هين جدا على كل طارح ، كما دل عليه التعبير بالنبذ . وبالبناء للمفعول « فى الحطمة » أى الطبقة من النار من شأنها أن تحطم أى تكسر بشدة وعنف كل ما طرح فيها ، فيكون أخسر الخاسرين ، وعبر بها فى مقابلة الاعتداد بالمال الحامل على الاستهانة بالخلق »(١٥)

يشير « البقاعى » الى ما فى النبذ من دلالة على الهوان والكراهية وهى دلالة أصيلة فى هذا الفعل ورثها من الجذر الاشتقاقى ، وقد وردت مادة هذا الفعل باشتقاقات متعددة ثنتى عشرة مرة دل فى كل مرة على هــذا المعنى(١٦) فــاذا اضفت الى الموروث الدلالى عطــاء التــأكيد

---

(١٥) نظم الدرر البقاعى ٢٦٣/٦ « مخطوط » .

(١٦) جميع الآيات التى وردت فيها مادة (ن . ب . ذ) دلالتها على معنى الطرح والالقاء هوانا بادية لا تخفى ، ما خلا قوله تعالى : « واما تخافن من قوم خيانة فقنبذ اليهم على سواء » وقوله تعالى : « فحملته فانتبذت به مكانا قصيا » غير أن الراغب الاصفهانى يجلى هذا المعنى فى الآيتين فيقول : « وقوله : فانبذ اليهم على سواء » فمعناه ألق اليهم السلم ، واستعمال النبذ فى ذلك كاستعمال الالقاء ، كقوله : « فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون وألقوا الى الله يومئذ السلم » تنبيها أن لا يؤكد العقد معهم بل حقهم أن يطرح ذلك اليهم طرحا مستحثا به على سبيل المجاملة وان يراعيهم حسب مراعاتهم له ، ويعاهدهم على قدر ما عاهدوه .

وانتبذ فلان : اعتزل اعتزال من لا يقل مبالاته بنفسه فيما بين الناس قال : (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) .

المفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهانى : مادة (نبذ) .

(لينبذن) ثم عطاء البناء للمفعول ادركت عظيم التناسب بين هذا الجزاء والفعل المجازى بسببه ، كما جلاه الشيخ ٠

اما التعبير بالحطمة فهو ذو دلالة بالغة على التكسير والتهشيم فى قوة وعنف ، وتلك ايضا دلالة موروثة من الجذر الاشتقاقى ٠

وقد وردت هذه المادة (ح ٠ ط ٠ م) فى القرآن الكريم فى ست آيات كان ذلك المعنى بارزا فيها جميعا(١٧) ، وهو هنا يصور الجزاء الوفاق لمن اعتد بالدنيا وعتادها ، حيث لم يكتف بجمع المـال بل عدده واعتد به مخلدا فهمز ولمز ٠ فكان التحطيم لهذا العتاد والتهشيم والطرح والالقاء البغيض ٠

ويمكن لنا ان نلحظ مع هذا التناسب الدلالى بين الفعل وجزائه تناسبا صوتيا بين (همزة ــ لمزة ــ حطمة) وفى ذلك اشـارة الى أن الانسجام الصوتى عنصر فعال فى البيـان القـرآنى كمـا سبق تبيانه فى التمهيد : (فصل : العلاقة بين اللفظ والمعنى) ٠

المهم أن « البقاعى » قد أدرك قدرة الالفاظ بموروثها الدلالى على تصوير الواقع بما تلقيه فى قلب المتلقى ، فيستحضر عقله وقلبـه تلك الحركة المنبثقة من شديد الكراهية ، المستقرة فى اعماق التحطيم ، ولو أنك قلت فى غير القرآن الكريم (ليطرحن أو ليلقين) فى الحطمة أو فى النار أو السعير لنبا بقولك هذا سياقه ولتنافرت منه عنـاصر التركيب ، ولتفجر القبح انهارا ٠

لقد ادرك « البقاعى » ان هذا الاسم للنار لم يرد فى غير هـذه

---

(١٧) كان ذلك فى سورة (النمل : ١٨ ، والزمر : ٢١ ، والواقعة : ٦٥ والحديد : ٢٠ ، والهمزة : ٤ ، ٥) ٠

السورة وينقل عن ابى الحسن الحرالى انه « لمعنى ما يختص بالحكم بسمى — تعالى — النار باسم من اسمائها من نحو جهنم فيما يكون مواجهة ومن نحو الحطمة فيما يكون جزاء القوة والقهر والاستعداد بعدد ونحو ذلك من سائر اسمائها »(١٨)

وذلك الادراك جزء عظيم من فقه المعرفة البيانية لاعجاز النظم القرآنى وعظيم تناسبه ، وقد كان للبقاعى منهجه فى استجلاء اسرار الاسماء ولاسيما اسماء سور القرآن الكريم •

❁ ❁ ❁

من هذا القبيل ما نراه فى تدبره اسماء الله الحسنى فى البيان القرآنى تدبرا يستجلى بعض دقائق ورقائق هذا البيان ، وذلك كما فى قوله تعالى :

« واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة ، وأنتم تنظرون »(البقرة : ٥٥)

ذكر بنو اسرائيل اسم الجلالة فى مقام طلب الرؤية جهارا ، بينما حقائق الدلالة للكلمات الثلاث (نرى — الله — جهرة) لا تتلاقى أبدا ، يوضح البقاعى ذلك فيقول :

« واذ قلتم ••• يا موسى •••• فدعوتموه باسمه جفاء وغلظة ، كما يدعو بعضكم بعضا ، ولم تخصوه بما يدل على تعظيمه ، لما رأيتم من اكرام الله — تعالى — له ، واكرامكم على يده « لن ••• نؤمن لك ••• حتى ••• نرى » من الرؤية ، وهى : الاطلاع على باطن الشىء الذى أظهر منه نبصره ، الذى أظهر منه ننظره ، ومنه يقال فى مطلع المنام رؤيا

---

(١٨) نظم الدرر للبقاعى ٦/٢٦٣ (مخطوط) •

لأن ذوات المرىء فى المنام من الامثال الباطنة فى صورة المنظور اليه فى اليقظة . انتهى . « الله » ... « جهرة » عيانا من غير خفاء ، ولا نوع لبس .

قال « الحرالى » : من الجهر ، وهو الاعلان بالشىء الى حد الشهرة، وبلاغة لمن لا يقصده ، فى مقابلة السر المختص بمن يقصده به وهذا المطلوب لا يليق بالجهر ، لتحقق اختصاصه بمن يكشف له الجوانب ، من خاصة من يجوز منه القربة ، من خاصة من يقبل عليه النداء ، من خاصة من لا يقع عنه الاعراض ، فكيف يطلب ذلك جهرا ، حتى يناله من هو فى محل البعد والطرد ، وفيه شهادة بتبلدهم عن موقع الرؤية فان موسى عليه السلام قال : « رب ارنى انظر اليك » وقال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربها ناظرة » وقال — عليه الصلاة والسلام: « انكم ترون ربكم » ، فالاسم المذكور لمعنى الرؤية انما هو « الرب » لما فى اسم « الله » تعالى من الغيب الذى لا يذكر لأجله الا مع ما هو فوت ، لا مع ما هو فى المعنى نيل ، ذلك أن أسرار العلم بمواقع معانى الاسماء الحسنى فى ما يناسبها من ضروب الخطاب والأحوال والأفعال، من أشرف العلم الذى يفهم به خطاب القرآن ، حتى يضاف الى كل اسم ما هو اعلق بمعناه ، وأولى به ، وان كانت الأسماء كلها ترجع معانى بعضها لبعض »(١٩)

يعتمد البقاعى — تبعا للفقيه أبى الحسن الحرالى — فى تدبره عظيم التنافر بين عناصر مطلوب بنى اسرائيل،على استكناه دلالة الفعل (رأى) واسم الجلالة ، ولفظ « جهرة » .

---

(١٩) نظم الدرر للبقاعى ١٢٤/١ « مخطوط » .

انه يفرق بين « نظر » و « أبصر » و « رأى » الفعل نظر هو ادراك لظواهر الاشياء بالعين دون نفوذ الى شيء من بواطنها ، وذلك ما يتلاءم مع اقتدار اداة هذا الفعل (العين) .

والفعل « أبصر » ادراك لظواهر الاشياء بالبصر والبصيرة والنفوذ منها الى شيء من بواطنها ، وذلك ما يتلاءم مع اقتدار البصر والبصيرة .

والفعل « رأى » ادراك لبواطن الاشياء دون انشغال بشيء من ظواهرها ، بالقلب والروح ، وذلك ما يتلاءم مع اقتدارهما (٢٠) .

بناء على هذه المفارقات ينبغى أن يكون تناسب بين طبيعة كل فعل وحقيقة ما يتناوله ذلك الفعل أو يقع عليه ، فاذا نظرنا الى اسم الجلالة (الله) واسمه (رب) أدركنا شيئا من عطاءاتهما :

اسم الجلالة علم على الذات الالهية التى هى قمة الغيب وذروته، حتى ان الهادى البشير — صلى الله عليه وسلم — حذر من مجرد التفكر فى ذات الله — تعالى — ولذا قال « نور أنى أراه » نفى رؤية ذات الله وحقيقته واستبعد ذلك تماما .

فالقول بوقوع ادراك حقيقة الذات الالهية دون انشغال بشيء من آثار أفعاله ومظاهرها الحسية ، أو مجرد امكان ذلك انما هو ضرب من الغفلة « عن الحقيقة » التى يكشف بعض جوانبها التدبر البيانى لدلالة الفعل (رأى) ودلالة اسم الجلالة .

---

(٢٠) لعل ذلك ما يلحظه علماء العربية حين يذكرون « رأى » البصرية والعلمية . والتفريق بينهما .

أما اسم « الربوبية » فانه يدل على مظاهر التجلى بالآلآء والنعماء والتربية والاحســان ، وتلك مظاهر محســوسة يمكن ادراك ظواهرها وعلى ذلك يكون تناسب بين الفعل « نظر » واسمه « رب » وهذا ماجاءت به آيات الله والحكمة ، فان التتبع والاســتقصاء لما فى القرآن الكريم يؤكد لنا انه لم تأت آية تقرر ايقاع الرؤية على اسم الجلاله •

وما جاء انما هو الربوبية « الى ربها ناظرة » •

ومثله فى صحيح الحكمة المحمدية « انكم ترون ربكم » ولم يقل : « ترون الله » •

ومن ثم نفقه دلالات وخصائص ومستتبعات التركيب المعجز فى قول الحق عز وعلا « قال رب أرنى أنظر اليك » •

فالكليم موسى ــ عليه الصلاة والســـلام ــ دعا ربه ، حاذفا حرف النداء وضمير المتكلم المضاف اليه «رب» طالبا اقداره على رؤية الأشياء«أرنى»والفعل هنا على الرغم من انه متعد الى مفعولين فى حقيقته، الا أنه هنا ــ فيما أذهب اليه ــ منزل منزلة المتعدى الى واحد ، ولا يستقيم تقدير مفعول ثان ، كما فعل بعض المفسرين فقالوا : « أرنى ذاتك »(٢١) •

بل المعنى : امنحنى الاقتدار على النفوذ الى بواطن الأشــياء من العالمين لاستطيع بهذا الاقتدار العظيم النظر ــ مجرد النظــر ــ اليك متجليا بربوبيتك لى •

---

(٢١) ينظر فى هذا نظم الدرر للبقاعى ٢١٣/٢ ، البيضاوى وعليه حاشية الشهاب الخفاجى ٢١٣/٤ (طبعة بولاق سنة ١٢٨٣ هـ) والبحر المحيط لأبى حيان ٣٨٢/٤ (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٩ هـ) وتفسير أبى السعود ٢٦٩/٣ (دار احياء التراث العربى / بيروت) •

ان ذلك ما نفقهه من البيان القرآنى لطلب الكليم موسى — عليه الصلاه والسلام — ، يكشف لنا عوار ما ذهب اليه بنو اسرائيل جهارا فلم يكتفوا بمجرد الرؤية لذاته تعالى بل طلبوا ان تكون عيانا من غير خفاء ، ولا نوع لبس • — تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، ومن ثم كان الجزاء « فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » وتأمل التعبير بالفاء والفعل «أخذ» ، والصاعقة • وتذكر قوله « وخر موسى صعقا » وقوله « تنظرون » أى تنظرون الصاعقة وهى تهوى لتأخذكم أخذ عزيز مقتدر •

ان كنت قد بسطت القول هنا ، فلأنى بصدد الحديث عن أمر كثر القول فيه واشتجر بين أهل العلم ، ولم يكن للبيانيين فيه قول ، على الرغم من أنهم أهل القرآن نشأة وتطورا • ذلك هو ما يسمى برؤيه الله ، عند علماء الكلام ، وفى يقينى أن الدرس البيانى عليه اليوم أن ينصدى بمنهجه الجمانى التحليلى ، المرتبط بالسياق الخاص والعام، النافذ فى أغوار الدلالات ، المدقق فى مساربسياستها البيانية المنطقية، المبصر تفاعل الالتزام بالعقل والالتزام بالشعور ، النازل على مقتضى السياق والأحوال المتكاثرة ، عليه أن يتصدى متترسا بذلك كله للبيان الالهى المعجز فيما يسمى بآيات الأحكام والعقيدة فى القرآن الكريم ، ويفسرها ، ويحللها ويقول للناس كلمته مثلما قال الفقهاء والمتكلمون كلمتهم فى تفسيرها ، ويوم أن يفعل الدرس البيانى ذلك ، فانه يقدم للمسلمين خيرا وفيرا ، هو أسمى وأسنى من الجدل العقيم حول مماحكات لفظية هى شاهد افلاس علمى •

* * *

وننتقل الى ضرب آخر من وقفات « البقاعى » المتدبرة تناسب الموروث الدلالى للكلمات مع السياق والقصد ٠هو مجل التعبير عن ذات واحدة باسمين فيجعل كل اسم فى سياق وقصد لا يتلاءم التعبير بالاسم الآخر معه ، وذلك مثل ما فى قوله تعالى : « فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما » [الكهف ٧٧]

وقوله تعالى : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة » [الكهف : ٨٢]

عبر القرآن الكريم بالقرية أولا وبالمدينة ثانيا مع أن المتحدث عنه بقعة واحدة ، ولا يشغلنا « البقاعى » بتحقيق اسم هذه البقعة وانما يلقى بصيرته الى السياق والقصد من كل آية كما يتراءى له ، والى دلالة كل من لفظ (قرية) و (مدينة) فأدرك تناسب كل تناسبا معجزا ٠

يقول الشيخ : « كان التعبير بالقرية أولا أليق ، لأنها مشتقة من معنى الجمع ، فكان أليق بالذم فى ترك الضيافة ، للاشعار ببخلهم حال الاجتماع ٠٠٠٠

وكانت المدينة بمعنى الاقامة ، فكان التعبير (ثانيا) أليق ، للاشارة به الى أن الناس يقيمون فيها ، فيهدم الجدار ، وهم مقيمون ، فيأخذون الكنز ٠٠٠ »(٢٢)

أبان الشيخ أن كلمة (القرية) تدور مادتها على معنى الجمع ،

---

(٢٢) نظم الدرر للبقاعى ٢٩٦/٣ (مخطوطرقم ٢١٣ تفسيردار الكتب المصرية) ٠

وذلك ما تدل عليه تقلباتها الصوتية(٢٣) والآية التى وردت فيها [الكهف ٧٧] ترمى الى بيان بخل أهل هذه البقعة ، وكم يكون البخل شنيعا حين يجمع عليه القادرون على العطاء لمحتاج غريب يستجدى ، فالاجتماع المصور ذلك المعنى يستحضره لفظ (القرية) بكل ما يملكه من امكانات دلالية ورثها من بناء وتشكيل اصول مادته •

أضف الى ذلك أن هذا التعبير يبرز المفارقة بين ما كان من أهل هذه البقعة ، وما الشأن أن يكون عليه امثالهم من أبناء القرى كرما وسخاء ، جبلة وطبعا •

أما كلمة (المدينة) فيدور معناها على الاقامة ، كما تدل عليه تقلباتها الصوتية(٢٤) والآية التى وردت فيها [الكهف : ٨٢] ترمى الى بيان كيف أن العبد الصالح لو لم يقم الجدار الذى اعترض كليم الله « موسى » على اقامته ، لترتب عليه ضياع حق يتيمين تركهما ابواهما فى كنف الله ورعايته ، فالاقامة بجوار الجدار أدعى الى تداعيه ، وأدعى فى الوقت نفسه الى نهب الكنز حين يبرز ، فذلك شأن أهل المدينة ، فهم أقرب الى البغى والعدوان •

الذى أبرز ذلك كله التعبير هنا بلفظ المدينة الحامل لهذه الدلالة من جذره الاشتقاقى •

وعليه فانه لن يستقيم ـ بلاغة ـ وضع احدى الكلمتين موضع الأخرى •

★ ★ ★

---

(٢٣) ينظر القاموس المحيط مادة : (قرر ، قرى ، روق ، ريق ، رقو ، رقى) •

(٢٤) السابق : مادة : (دمن ، مدن ، ندم) •

ووقفة اخرى فى قصة سيدنا « آدم » واللعين « ابليس » تريـنـا القرآن الكريم فى سورة « البقرة » يعبر بلفظ « ابليس » عند الحديث عن الامتناع عن السجود : « فسجدوا الا أبليس أبى »[البقرة : ٣٤] وكذلك فى (الاعراف : ١١) ، (الحجـر : ٣١) ، (الأسراء : ٦١) ، (طه : ١١٦) •

ويعبر بلفظ « الشيطان » عند حادث اغواء « آدم » و « حواء » عليهما السلام ، يقول الحق عز وعلا : « فأزلهما الشيطان عنها »[البقرة: ٣٦] وكذلك فى (الاعراف : ٢٠) ، (طه : ١٢٠)

على الرغم من أنهما اسمان لذات واحدة ملعونة ، الا انه لم يضع احدهما فى سياق آخر ، ذلك أن لكل منهما من موروثه الدلالى مايتناسب مع ما أورده القرآن الكريم فيه ، « فابليس مشتق من الابلاس وهو انقطاع سبب الرجاء الذى يكـــون منه اليـأس من حيث قطـع ذلك السبب ••• »(٢٥) وهذا عنده اما على القول بان كلمة « ابليس » عربية، أو انه اسم اعجمى مشتق من غيره ويشتق منه(٢٦) •

أما لفظ « الشيطان » عنده ، فهو « مأخوذ من أصلين : الشــطن (البعد) والشيط (الاحتراق) والاسراع فيه فهو من المعنيين مشتق، كلفظ « انسان » و « ملائكة »(٢٧) •

يريد الشيخ ان لفظ « شيطان » كالمنحوت من أصلين ، فاجتمع فيه معناهما ، بل هو يصرح بذلك النحت فى مقام آخر ، فيقول :

---

(٢٥) نظم الدرر للبقاعى ٤٣/١ (مخطوط) •

(٢٦) ينظر : الخصائص لابن جنى ٣٥٧/١ •

(٢٧) نظم الدرر للبقاعى ٤٨/١ •

« ليكن اسم « ملائكة » جامعا للمعنيين : « الألك » و « الملك »
منحوتا من أصلين ، فكثيرا ما يوجد ذلك فى اسماء الذوات الجـامعة ،
كلفظ « انسان » بما ظهر فيه من أنه من « الأنس » و « النسيان » معا،
وهو وضع للكلم على مقصد أفصح وأعلى مما يخص به النفـخ معنى
واحدا ، فللكلام رتبتان : رتبة عامة ، ورتبة خاصة ، أفصح وأعلى كلما
وكلاما »(٢٨) •

يعتمد « البقاعى » هنا على « النحت » ، لأنه السبيل الذى يجمع
بين دلالات الأصول فى لفظ واحد ، فلفظ « شيطان » له من « الشطن »
معنى ، ومن « الشيط » معنى ، فيلتقى المعنيان فيه انتقاء جدليا لاينقض،
بخلاف أخذه من معنى واحد وذلك معلم من معالم الشيخ « البقاعى »
فى تدبره آيات الله ــ تعالى ــ وسوف نرى فى المبحث الثالث شيئا من
جمعه بين الدلالات والاتجاهات المختلفة بحيث يستخرج من جمعهـا
وتفاعلها نهجا جديدا مفيدا •

هذا النهج يبرز ايمان « البقاعى » بثراء البيان القـرآنى ، وانه
جمال ذو وجوه ، كما يقال ، فلا يكفى فى اسهامه وجه واحد من وجوه
التدبر ، ولايغنى سبيل واحد من سبل الفهم •

نرى ذلك جليا فى تدبره استخدام القرآن الكريم لفظ «ابليس»
فى سياق الحديث عن عدم سجوده ، ولفظ « الشـيطان » فى سـياق
الحديث عن معصية « آدم » عليه السلام • يقول الشيخ :

« ذكر الحق ــ تعالى ــ الازلال منه باسم الشيطان لا باسمه ،
لما فى معنى الشيطنة من البعد والسرعة التى تقبل التلافى ، ولما فى معنى

---

(٢٨) السابق ١/٤٠ •

الابلاس من قطع الرجاء ، فكـــان ذلك بشرى اسـتدراك « آدم » بالتوبة »(٢٩)

يريد الشيخ ان فى استخدام لفظ « الشيطان » مع معصية «آدم» اشارة الى أن أثره يتلاشى فى سرعة ويبتعد ويخبو ، فيفهم أهل القرآن من ذرية « آدم » أن كل محاولة للشيطان مع الانسان ان قوبلت بالتوبة النصوح يزول أثرها ويحترق •

أما استخدام لفظ « ابليس » مع معصية عدم السجود التى هى فى حقيقتها رد الأمر على الآمر — عز وعلا — المفهم وصف «ابليس» للحق —جل جلاله— بعدم استحقاق الالوهية ، وذلك الذى لايغفر أبدا ،فالسياق يستشرف الى ذلك الاستخدام ويأنس به ويهش له ، لانه سياق قطع الرجاء من الغفران لهذا الذى كان منه • وهو ما يوحى به ويدل عليه لفظ « ابليس » بما يحمله من معنى الابلاس وقطع الرجاء •

ولو أنه استخدم لفظ « ابليس » فى سياق زلة « آدم » عليـــه السلام ، وهى وليدة نسيان ، كما قال الحق عز وعلا ، (ولقد عهـدنا الى آدم من قبل فنسى ، ولم نجد له عزما » [طه:١١٥] ثم ادرك هـذا النسيان وأثره بالتوبة « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنـــا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »[الاعراف : ٢٣] ، لو انه استخدم لفظ « ابليس » هنا لقتل ذلك فى قلوب بنى آدم كل أمل لمن زل قـدمه فى العودة الى الله • وهو ما يتنافر مع ما تقرره آيات الله والحكمة •

« البقاعى » كما بدا لك كان ذا بصر بتناسب وتفاعل عنـــاصر البيان القرآنى مع السياق والقصد الذى يرمى اليه •

---

(٢٩) نظم الدرر للبقاعى ٤٨/١ « مخطوط » •

ويمكن لك أن تقول تمام على الذى احسن من قبلك : «البقاعي» عليه الرضوان : ان كلمة « ابليس » فيها معنى التحير ثم اليأس(٣٠) فيعطى استخدامها فى ذلك السياق اشارة الى انه في أول أمره عندما أمر بالسجود كان حائرا بين قياسات عقله ، وموازناته بين الطين والنار . وبين نداءات تنبه بالتسليم المطلق للامر الالهى • عاش أولا فى حيرة من امره ، ثم تهاوى الى صوت العقل وقياساته فجهر بكلمته الشنعاء « آأسجد لمن خلقت طينا »[الاسراء : ٦١] • « أنا خير منه » [الاعراف : ١٢] لكن الملائكة خضعت لصوت التسليم لمرادات الحق • فسجدوا كلهم اجمعون ، فترتب على ما انتهى اليه ابليس بعد حيرة بلغة أن طرد من رحمة الله فكان اليأس وكان القنوط ، وكان من آثار هذا اليأس الاحتراق بغضب الحق عز وعلا ولعنته ، وعظيم ابتعاده الازلى عن رضوان الله تعالى وذلك ما كان باديا عليه من بعد رفض السجود ، فهو ابان اغواء آدم كان متلبسا بخصائص التشيطن التى ورثها عنه من كان من ذريته على منهجه ، وكذلك من كان من ذرية « آدم » عليه السلام، ومن ثم اطلق عليهما لفظ الشيطان « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الأنس والجن »[الإنعام : ١١٢]



موقفـــه من تفـــاوت البيـــان القـــرآنى

ونختم تدبراتنا فى هذا الفصل بتبيـــان موقف « البقـــاعى » من تفاوت البلاغة القرآنية وذلك من خلال تنظير آرائه وتدبراته ببعضها وذلك فى مثل تأمله قول الحق عز وعلا :

---

(٣٠) ينظر لسان العرب والقاموس المحيط مادة (بلس) •

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين »[آل عمران] •

وقوله تعالى : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين امنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » [الحديد : ٢١]

ايه سورة « ال عمران » جاءت فى معرض الحديث عن جهاد بالأموال والأنفس والانعتاق من حظوظ النفس ، وعقيب الحديث عن غزوة « بدر » : ذروة التجرد عن ملاحظة النفس . وحظوظ النفس فناسب ذلك الاستغراق فى الفناء عن الاغيار التعبير بالمسارعة الدال على شدة التلهف وعظيم الجهة بغية الادراك ، وناسبه أن كانت الى مغفرة وجنة عرضها السموات والأرض ، وليس عرضها كعرض السماء والأرض ، وهذا يصور جنة المسارعين تصويرا يسمو على قدرات كاف التشبيه التى جاءت فى جنة سورة « الحديد » ومن ثم كانت الجنة التى تحدثت عنها سورة « الاصطفاء » والتوحيد ، سورة « آل عمران » للمتقين المشارفين على القدوم على مقام الاحسان •

اما آية سورة « الحديد » فقد جاءت فى معرض الحديث عن التصديق والاقراض •

وفرق جد شاسع بين الجهاد بالأموال والانفس والانعتاق من حظوظ النفس الذى به آية « آل عمران » وبين التصديق والاقراض الذى له آية « الحديد » ، وكفى التعبير بالاقراض اشاره الى لحظ حظوظ النفس فيما تخرجه ، ومن ثم كان التعبير فى سورة «الحديد» بالمسابقة التى لا تصل الى مستوى المبارعة دائما • ولهذا كانت المسابقة الى مغفرة وجنة عرضها كعرض السماء والارض ، فهى جنة دون التى

فى آية آل عمران ومن ثم كان الافراد فى « السماء » والتصريح بداة التشبيه وذلك لانها جنة الذين آمنوا .

وفى هذا يقول البقاعى : « سابقوا » اى افعلوا فى السعى لهـا بالاعمال الصالحة حق السعى فعل من يسابق شخص هو يجتهد غـاية الاجتهاد فى سبقه ولكن ربما كان قرينه بطيئـا ، فسـارعوا الهـوينا والمسارعة لا تكـون الا بجهـد النفس من الجـانبين مع السرعة فى الصرف .

فآية « آل عمران » الآمرة بالمسارعة الأخص من المسابقة ابلـغ لانها للحث على التجرد عن النفس والمال وجميع الحظوظ أصلا ورأسا، ولذلك كانت جنة للمتقين المرموقين واما هذه ففى سياق التصديق الذى هو تجرد عن فضول الأموال ولذلك كانت جنة للذين آمنوا « الى مغفرة من ربكم ..... » فلما كان السياق ، كمـا بين للتجـرد عن فضـول الأموال فقط كان الموعود له دون ما فى « آل عمران » فأفرده ، وصرح بالعرض ، فقال « كعرض السماء والأرض » أى لو وصل بعضها ببعض، فآية « آل عمران » تحتمل الطول ، وجميع السموات والأرض ، وهذه الآية ظاهرها عرض سماء واحدة وأرض واحدة »(٣١)

نقف عند قوله : (فآية « آل عمران » الآمرة بالمسارعة الأخص من المسابقة أبلغ ...) فقوله (أبلغ) اما ان يكون مشتقا من المبالغة أو البلوغ أو البلاغة(٣٢) وما يترتب على أحدهما يغاير ما يترتب على الآخر ، كما

---

(٣١) نظم الدرر للبقاعى جـ ٥ ق ٣٣٦ ـ ٣٣٧ « مخطوط » .

(٣٢) ان قيل انه مشـتق من (بالغ : مبـالغة) ففيـه أن (أفعل التفضيل) لا يشتق من الرباعى ، ليمكن بناء (افعل) منه ، والرباعى متعذر =

سيأتى بيانه ، وحتى نكون على وعى بالغ بحقيقة موقف البقاعى من هذه القضية نضيف الى هذا نصوصا اخرى لديه فى القضية :

يقول الشيخ فى تدبره قول الحق عز وعلا : « قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار » [ص : ٦١]

مقارنا لها بقوله تعالى : « ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار »[الاعراف : ٣٨]

« عذابا ضعفا :أى زائدا على مثله مرة أخرى بالاضلال ،وقيدوا طلبا لفخامته بقوله معبرين بالظرف لافهم الضيق الذى تقدم الدعاء العجاب منه(٣٣) ليكون عذابا آخر فهو أبلغ مما فى « الاعراف » ، لان السياق هنا للطاغين ، وهناك لمطلق الكافرين »(٣٤) .

ونص ثالث يقارن فيه بين أول سورة « الجمعة » ، وأول سورة « التغابن » يقول فى أول سورة «التغابن» :

« له أى وحده (الملك) أى كله مطلقا فى الدنيا والآخرة ، وهو السيادة العامة للخاص والعام والسياسة العامة ، بركنيها دفع الشرور وجلب الخيور الجالبة للسرور والحبور من الابداع والاعدام ، فهو أبلغ مما فى « الجمعة » ، فان الملك قد يكون ملكا فى الصورة ، وذلك الملك

=

فيه ذلك ولا يتأتى الا باسقاط بعض الحروف فيلزم الالتباس ، غير أن الأخفش والمبرد اجازا صوغ افعل التفضيل من الرباعى ، ورد عليهما ذلك بما هو شهير فى علم النحو : ينظر شرح ابن يعيش مفصل جـ ٦ ص ٩٢ـ٩٣ وشرح الرضى للكافية جـ ٢ ص ٢١٤ ، وحاشية الدسوقى على المختصر ٤/٢٧٥ ، تقرير الانبابى على المختصر ٤/٣٤٣ .

(٣٣) يقصد قول الحق عز وعلا « لا مرحبا بهم » الآية : ٦٩ .

(٣٤) نظم الدرر البقاعى جـ ٥ ق ٢٣ (مخطوط) .

هو لغاة ، فدوام التسبيح الذى اقتضته عظمة الملك هنا أعظم من ذلك الدوام »(٣٥)

نصوص ثلاثة يعطى ظاهرها القول بتفاوت البيان القرآنى مبالغة أو بلوغا أو بلاغة .

ان قلنا انه يقول بتفوته بلاغة بمعناها الاصطلاحى الشهير فان ذلك يقوض النظرية التى يقيم عليها تدبره البيان القرآنى : نظرية التناسب القرآنى . لان روح هذا التناسب هو بلوغ كل عنصر درجة الكمال فى البلاغة من كل جهاته ومطابقته لكل مقتضيات الأحوال التى نعلمها والتى استأثر الله بعلمها اعجازا خالدا ، وذلك يتنافر معه القول بتفاوت البيان القرآنى بلاغة .

وان قلنا ان الرد بالبلاغة هنا البلاغة اللغوية ، وهى الحسن(٣٦) فذلك موضع نظر مثله ان قلنا انه من البلوغ أو المبالغة .

الذى نبصره فى موقف البقاعى من خلال تعبيره أنه يذهب الى ان ما فى « آل عمران » فى سياقه أبلغ (أكثر حسنا أو وصولا أو مبالغة) من التعبير بما فى « الحديد » فى سياق آل عمران ، وكذلك ما فى سورة « ص » فى سياقه أبلغ من التعبير بما فى « الاعراف » فى سياق « ص » بدليل قوله (لان السياق هنا للطاغين وهناك لمطلق الكافرين) وكذلك ما فى « التغابن » فى سياقه ابلغ من التعبير بما فى « الجمعة » فى سياق « التغابن » .

فالتفاوت عنده ليس تفاوت صيغة ومطابقة لمقتضيات الأحوال وانما هو تفاوت فى السياق ، فسياق الحديث عن المتقين اعلى من سياق

---

(٣٥) السابق جـ ٦ ق ٨٥ ـ ٨٦ .

(٣٦) حاشية الدسوقى على المختصر جـ ٤ ص ٢٧٥ .

الحديث عن الذين آمنوا ، لبعد ما بين الطائفتين وكـذلك الامـر بين الطاغين ومطلق الكافرين وايضا سياق « التغابن » للحديث عن التفرد بالملك والحمد والقدرة المطلقة والعلم الشامل « فدوام التسبيح الذى اقتضته عظمة الملك هنا أعظم من ذلك الدوام » فى سورة « الجمعة »، حيث السياق لم يكن للتفرد بالملك والحمد والقدرة والعلم ، وانما للتنزه والعزة والحكمة والتفضل بالآلاء .

فالتفاوت عنده تفاوت سيق لا تفاوت صياغة ومطـابقة ومن ثم نجده فى سورة « الزمر » عند قوله تعالى :

يقول : « متشابها » أى فى البلاغة المعجزة والموعظة الحسـنة لا تفاوت فيه أصلا فى لفظ ولا معنى ، مع كونه نزل مفـرقا فى نيـف وعشرين سنة ، وأما كلام الناس فلابد فيه من التفاوت وان طال الزمان فى التهذيب »(٣٧)

قوله هذا قاطع : فى انه لا يقول بالتفاوت فى الصياغة والمطابقة لمقتضى الأحوال مما يؤكد صحة ما ذهبت اليه فى فهم موقفه من خلال النصوص الثلاثة الآنفة ، وعلى الرغم من ذلك فان القول بالتفاوت بأى وجه : مطابقة ، وحسنا ، ومبالغة ووصولا ، غـير سـديد ، وان كان بعض هذه الوجوه لا يخفى فالقول بأحدها يستتبع القول بالآخر .

وكذلك القول بالتفاوت من حيث السياق غير سديد عندى ، ذلك أن الموازنة بين سياقات مختلفة أمر يرفضه الفكر المستقيم ، وينبـو عن أصول الموازنة الدقيقة ، لأن الحديث عن « الذين اتقوا » ليس أبلغ أبدا من الحديث عن « الذين آمنوا » متى اقتضى مقصود السـورة

---

(٣٧) نظم الدرر للبقاعى جـ ٥ ق ٤٣ (مخطوط) .

الحديث عما جاء فيها ، فالقول بالتفاوت من حيث السياق أشبه بالقول بأن سورة « المسد » من حيث ان المقابلة بين ذكر الله عز وجل ، وبين ذكر ابى لهب عليه اللعنة من جهة ، وبين التوحيد وبين الدعـاء عـلى الكافرين من جهة أخرى • وذلك بلا ريب غير مستقيم فى عقل وان جهد فى تلمس وجه لاستقامته •

ولهذا كان الامام شمس الدين الخويى(٣٨) أقرب الى الصواب حين قال : « ينبغى أن يقال : «تبت يدا أبى لهب» دعاء عليه بالخسران، فهل توجد عبارة للدعاء عليه بالخسران أحسن من هــــذه ؟ وكذلك فى « قل هو الله أحد » لا توجد عبارة تدل على الوحدانية أبلغ منهـــا ، فالعالم اذا نظر الى « تبت يدا أبى لهب » فى باب الدعاء بالخسران ، ونظر الى « قل هو الله أحد » فى باب التوحيد لا يمكنه أن يقـــول أحدهما أبلغ من الآخر ، وهذا القيد يغفل عنه بعض من لا يكون عنده علم البيان » (٣٩) •

وتماما على الذى أحسن أقول على الرغم مما قاله الامام الخويى، فانى أذهب الى أنه لا يستقيم أن يفهم ان « قل هو الله أحد » أبلغ من كل آيات التوحيد فى القرآن الكريم ، فلو أننا وضعنا هــــذه السورة بكاملها موضع أى آية تتحدث عن التوحيد فى أى سورة أخرى لمـــا

---

(٣٨) هو الامام أحمد بن خليل بن ســـعادة الخويى (ت ٦٣٧ هـ) عالم فى الحكمة والطب والنحو والأصـــول والكلام ، تتلمذ على فخر الدين الرازى ، له عدة مؤلفات منها ينابيع الحكمة وشرح الارشاد فى الجدل • (ينظر : معجـم المؤلفين لرضـــا عمر كحالة جـ ١ ص ٢١٦) طبعة الترقى سنة ١٩٥٧ م ـ دمشق •

(٣٩) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ١ ص ٤٣٩ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ط /ثانية ، بيروت •

استقام ذلك ، لأن موضع الآية والسورة جزء من مقومات بلاغتهـا ، فسورة الاخلاص مثلا استقرت على عرشها فى هـذا الموطن بين « المسد » و « الفلق » ولو حولت عن مكانها لنزلت من بلاغتها ، ومثل ذلك فى كل آية وسورة ، فكل عنصر فى سياقه وملابساته المتكاثرة المعجزة فى ادراكها كلها مثلما هى معجزة فى مطابقتها مستقر على عرشه ، ولكل كلمة عرشها الذى لا تنازع فيه •

فلا تفاوت عندنا بين عناصر البيان القرآنى لا من حيث المطابقة أو المبالغة أو الحسن أو الوصول ، فأى وجه من وجوه التفاوت بين عناصر البيان القرآنى من حيث هو بيان لا يستقيم • ذلك ما يطمئن اليه القلب ايمانا والعقل تفكيرا •

أما ما ورد فى الحكمة النبوية من أحاديث صحيحة يثبت تفضيل بعض آيات القرآن الكريم وسوره كآية الكرسى وسورة الاخلاص والكافرون ••• الخ فالأفضلية هنا ليست من حيث بيانها الذى نحن مهمومون به ، وانما هو من حيث الثواب وتنزلات الأسرار وسبحات الأنوار • تيسيرا على هذه الأمة ، فيكون لها عميم الثواب من قليل العمل فجعل سورة الصمد تعدل ثلث القرآن الكريم حتى لا يحرم الذين لم يكرموا بحفظ الذكر الحكيم أو بحسن تلاوته من عظيم الفضل • ومن ثم لا تتساوى عطاءات تلاوة القرآن الكريم كله من عالم مع عطاءات تلاوته سورة « الصمد » ثلاث مرات ، مع ملاحظة رحابة المراد بقولنا « عطاءات » فهى أكبر من الثواب والمعانى والأنوار والأسرار ، فالقرآن الكريم مائدة الله وهى يتكاثر ما عليها من آلاء على قدر الجالس اليها فكل له على قدر مقامه وفيوضاتها أشبه بفيوضات الجنة لأهلها ، كل على قدره ، فلا يستدل بتفاضل الآيات والسور ثوابا لاثبات تفاضلها بيانا فالأمر جد مختلف •

كل ذلك نقوله تعقيبا على موقف « البقاعى » والأمر من قبل ومن موطن تجاذب بين أهل العلم ولا سيما البيانيون (٤٠) ولعلى أعد دراسة مستوعبة لمقولاتهم عرضا وتحليلا وتقويما . (انتهى) .

* * *

موقفه من قضية الترادف فى البيان القرآنى

ايمان البقاعى باعجاز التناسب بين الكلمة من حيث مادتها مع السياق والقصد فى البيان القرآنى يؤكد أنه لا يقول بالترادف فى بيان الذكر الحكيم ، فكل كلمة فيه لها خصائصها وامكاناتها وعطاءاتها على لاحب السياق الذى ترد فيه ، والمنزل الذى تنتهى اليه ، ولن يستطيع سواها أن يعطيه فى ذلك السياق والمنزل نفسيهما ، وان تلاقت هذه الكلمة مع تلك فى بعض وجوه الدلالة . مثلما لا تعطيها الكلمة الأولى نفسها فى سياق ومنزل آخرين .

ان ذلك هو عنصر من عناصر حقيقة التناسب القرآنى ، ولن يستقيم معها القول بالترادف .

ذلك ما انتهى بنا اليه التطواف والتنقيب والتأمل فى تفسير البقاعى « نظم الدرر » ، والقضية من قبله ومن بعده تشغل جمهرة

---

(٤٠) لقيت هذه القضية لديهم جدلا كثيرا ولا سيما عند قول الخطيب فى التلخيص (ولها طرفان أعلى ، وهو حد الاعجاز وما يقرب منه) ينظر فى هذا المطول للسعد (ص ٣٠ ـ ٣١) وعروس الافراح (١٣٨/١) ومواهب الفتاح (١٣٧/١ ـ ١٤١) ، وحاشية الدسوقى على المختصر (١٣٨/١ ـ ١٤١) والاطول للعصام (١٣٥/١) وتجريد البيانى على المختصر (٣٢٤/١ ـ ٣٣٦) وتقرير الانبابى على المختصر والتجريد (٣٢٤/١ـ٣٣٦) وحاشية عبد الحكيم على المطول (ص ١٤٠ ـ ١٤٢) ورسالة (اعجاز القرآن) لابن كمال باشا (ق ٢١٩ ـ ٢٢١)مخطوط رقم ٣٨٩ مجاميع بدار الكتب المصرية .

من العلماء فى شتى العصور ، وقد تباينت مواقفهم بين الرفض المطلق، والتأييد المطلق أيضا والتوقف • وقد تابعت الكثير من هذه المواقف (٤١) •

فألفيت الأمر فى حاجة جد بالغة الى تفصيل القول تحليلا وتقويما وذلك ليس غاية هذه الدراسة من جهة ولا يتسع له هذا المقام من جهة أخرى ، فكان لزاما الاكتفاء هنا بابداء موقف صاحبنا «البقاعى» وارجاء دراسة مواقف العلماء قديما وحديثا الى بحث مستقل آمل أن أقيمه نهذه القضية عسى أن نوفق الى جلاء الحقيقة ودفع كل ما يحوم حولها من شبهات آخذه بخناق مقولات بعض أهل العلم •



---

(٤١) من ذلك ما قاله ابن فارس فى الصاحبى ص ١١٤ ـ ١١٧ ، والرمانى فى رسالة الألفاظ المترادفة •

وأبو هلال العسكرى فى الفروق اللغوية (ط / الرابعة سنة ١٤٠٠ هـ بيروت) والسيوطى فى المزهر جـ ١ ص ٢٣٨ (ط/ صبيح) ودلالات الالفاظ لابراهيم انيس ص ٢٢١ وفى اللهجات العربية له أيضا ص/١٧٨ ، ودور الكلمة فى اللغة لاستيفن اولمان وتعليق المترجم الدكتور كمال بشر ص ٩٧ ، وفقه اللغة للدكتور على وافى ص ٢٦٨ ، الاعجاز البيانى للقرآن لعائشة عبد الرحمن ص ١٩٤ وفصول فى فقه العربية لرمضان عبد التواب ص ٣٠٩ •

الفصل الثانى

تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث هيئتها

لا ريب فى أن للعربية من حيث هى النصيب الأوفى فى الصياغات المتعددة للكلمات ، وكل صياغة ذات عطاءات متنوعة عنى علماء العربية بابراز بعضها . وأكثر ما يكون الفيض حين تتنزل هـــذه الكلمات فى البيان القرآنى فانه مفجر منها ومغدق عليها ما لا يتناهى من سبحاته وسرائره الآخذة بألباب صفوة أهل العلم والقــرب ، ودونك نزير من ذلك الــكوثر :

* * *

المضارع : ملامح وعطاءات تناسبه ....

أهم خصائص الفعل عامة احتواؤه على حدث وزمان مقيد لنسبة الحدث « ودخول الزمان الذى من شأنه التغير فى مفهوم الفعــل يؤذن ويشعر باعتبار التجديد فى الحدث (١) ، وهذا التجديد يطلق عـــلى معنيين :

الأول : الحصول بعد ان لم يكن ، وهو المعتبر فى مفهوم الفعل.

---

(١) تقرير الانبابى على المختصر والتجريد ج ٢ ص ٣٣٧ ، ٣٤٢ .

الآخر : التقضى والحصول شيئا فشيئا على وجه الاستمرار،وهو لازم للزمان وليس بلازم للفعل ، ولا يعتبر فى مفهومه حتى اذا أريد من المضارع لا بد له من قرينة (٢) .

فالدلالة على التجدد من حيث هو معتبر فى مفهوم كل فعل ولا سيما المضارع اما الدلالة على التجدد الاستمرارى فان يكن لازما للزمان الذى هو جزء مفهوم الفعل عامة والمضارع خاصة فليس بلازم للفعل بحيث يفيد كل فعل تجددا استمراريا ، دلالة المضادع عليه تكون بمعرفة الأحوال والملابسات والقرائن وليست دلالة ذاتية . ومن ثم قد يأتى المضارع ولا يفيد ذلك التجدد الاستمرارى وذلك حين لا يكون قرائن وملابسات وأحوال معينة على ذلك وسوف نرى موقف البقاعى من خلال تدبره البيان القرآنى من هذا الفكر التنظيرى لدى علماء العربية .

★ ★ ★

عند تدبره قول الحق عز وعلا : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون». الأعراف : ٩٧ — ٩٩

يقول : « أفأمن أهل القرى » أى كذبوا ناسين أفعالنا المرهبة بالمضار ، والمرغبة بالمسار ، فأمنوا (٣) « أن بأسنا » أى الناشىء عما

---

(٢) مواهب الفتاح لليعقوبى جـ ٢ / ٢٧ ، حاشية الدسوقى على المختصر جـ ٢ / ٢٧ .

(٣) يشير بذلك الى أنه معطوف على مقدر ، وان الاستفهام فى (أفأمن) داخل على ذلك المقدر ، وذلك مسلك البيانين فى مثل هذا .

لنا من العظمة التى لا ينساها الا خاسر «بيات» أى ليلا ، وهم قـــد أخذوا الراحة فى بيوتهم ، ولمــا كان النوم شيئا واحدا يغمر الحواس، فيقتضى الاستمرار عبر بالاسم الدال على الثبت فقال «وهم نائمون» أي على غاية الغفلة عنه ، ولمــا كان ربما قال جاهل لو جاء وهم أيقاظ لأمكن ان يدافعوا قال « أو أمن أهل القرى » أي مجتمعين أو منفردين، فانه لا فرق عنـــدنا فى ذلك « أن يأتيهم بأسنا ضـــحى » فى وقت راحتهم (٤) واجتماع قواهم ونشاطهم ، ولمــا كانت اليقظة موجبـــة للحركة عبر بالمضارع فى قوله « وهم يلعبون » أى يتجـــدد لعبهم شيئا فشيئا فى ذلك الوقت ، وفيه تقريع لهم بنسبتهم أنهم صبيان العقول لا التفات لهم الى غير اللعب »(٥) •

يشير «البقاعى» الى تناسب المضارع «يلعبون» مع طبيعة الحدث «اللعب» المعتمد على الحركة المتجددة وعلى التنوع ، وتناسبه أيضــا مع زمان اتيان البأس «الضحى» فهو وقت حركة ونشاط واجتماع قوى وذلك يتناسب معه المضارع لاقتداره على الدلالة على التجدد والحدوث والتقضى شيئا فشيئا ، كما يقول الامام عبد القاهر (٦) بمعونة قرائن الأحوال ، فضلا عن عطائه تقريعا لهم وتبيانا لحقارتهم بأنهم قـــوم يلعبون فى وقت ليس من شأن عاقل أن يلعب فيـــه ، اذ لا يلعب فى الضحى الا صغير أو سفيه ، وكأنه أراد أنهم يلعبون فى ضحى أعمارهم، وهو وقت تحصيل كسبهم فى أخراهم فهم صبيان العقول ، وان كانوا شيوخ الأعمار •

---

(٤) لا يريد براحتهم سكونهم واستقرارهم وانما يريد انهم غير منهكى القوى •

(٥) نظم الدرر للبقاعى ج ٢ ق ١٩٦ « مخطوط » •

(٦) دلائل الاعجاز ص ٢٢٣ ـ تصحيح المراغى ـ الطبعة الثانية •

كذلك يمكن أن نلحظ التناسب العالى بين عطاء استخدام كلمة «الضحى» وما فيه من تقريع سبق بيانه وعطاء الاستفهام فى «أفأمنوا» فان فيه من التقريع والتبكيت ما لا يخفى على ذى حس بيانى،والبقاعى لم يشر الى ذلك .

اما صيغة الحدث «النوم» فالذى يتناسب مع طبيعته هو الاسم، فهذا الحدث انما هو شىء واحد يغمر الحواس فيقتضى الاستقرار والثبوت الذى هو أبرز دلالات الاسم ، أضف له أن استخدام اسم الفاعل «نائمون» هنا يتناسب بجلاء مع التعبير عن زمان اتيان البأس «بياتا» دون «ليلا» ، لأن «ليلا» لا يفهم منه حتم الاستقرار لكل أحد ، فكم من قوم لاقرار لهم فى ليلهم ، فلا يكون التعبير به معطيا دقة المقابلة الدالة على شمول الهيمنة الالهية ولكن «بياتا» يعطى دلالة على أنهم متلبسون بالبيتوتة أي الراحة والسكون والدعة ، وقد أشار البقاعى لذلك بدقة بالغة ، وهو يفسر قوله «بياتا» .

هكذا يستطيع «البقاعى» أن يلمح وأن يبين التناسب العالى والمعجز فيما بين عناصر البين القرآنى ، وكيف ان اختيار هذه العناصر وتشكيلها واختيار منازلها انما يكون وفقا لطبيعة الحدث والزمان والسياق . والرجوع الى موقف بعض سابقيه ولاحقيه من الآية (٧) يبين أكثر وأكثر مما امتاز به «البقاعى» من مزيد رهافة حس ، ودقة بصر وتبين .

---

(٧) راجع ما قاله الزمخشرى فى الكشاف جـ ٢ ص ٩٨ والبيضاوى فى انوار التنزيل جـ ٤ ص ١٩٦ ، وأبو السعود فى تفسيره جـ ٣ ص ٢٥٤ . والطاهر بن عاشور فى التحرير والتنوير جـ ٩ ص ٢٢ .

ونقف عند تدبره تنزل الفعل المضارع ومن قبله اسم فاعل ، ومن بعده اسم فاعل آخر ، وذلك فى قول الحق عز وعلا :

« ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخــرج الميت من الحى ، ذلكم الله ، فأنى تؤفكون » [الأنعام : ٩٥]

فنجده يشير الى أن معنى فالق الحب والنوى . فاطره وشاقه عن الزرع والنبات ، وعبر بذلك ، لأن الشيء قبل وجــوده كان معــدوما والعقل يتوهم ويتخيل من العدم ظلمة متصلة ، فاذا أخرج من العدم المحض ، والفناء الصرف ، فكأنه بحســب التخيل والتوهم شــق ذلك العدم »(٨)

ففلق الحب والنوى انما هو ضرب من الاحياء اى اخراج حى من ميت ، لأن فى النبات نموا ، ومن هنا « فسر [الحق عز وعــلا] معنى الفلق ، وبينه ، اشارة الى الاعتناء به وقتا بعد وقت . بقوله : «يخرج» على سبيل التجديد والاستمرار ، تنبيها لأمر البعث «الحى من الميت»(٨)

المضارع فى « يخرج الحى ... » يكشف عن حقيقة قوله «فالق» وهذا الكشف لا يقتدر عليه اسم الفاعل لو عبر به ، وفى الوقت نفسه نجد المضارع فى « يخرج الحى ... » متناسبا مع الســياق الخــاص للآية وهو البعث ، كما لا يخفى ، ومع السياق العام والمقصود الأعظم لسورة « الانعام » وهو الايجاد الأول والحمد عليه ، كما سيأتى تبيانه فى « المبحث الرابع » ان شاء الله تعالى ، وفى الوقت نفسه يتنــاسب المضارع فى « يخرج الحى ... » مع طبيعة حركة ، وتجدد وتنوع ..

---

(٨) نظم الدرر للبقاعى جـ ٢ ق ١٥٦ « مخطوط » .